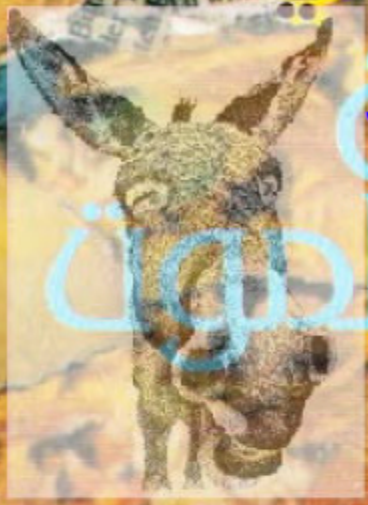

جمال ناجي
الحياة على ذمة الموت
Jamal Hatmal
SCANNED BY JAMAL HATMAL
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ق
جما جمال ناجي
الحياة على ذمة الموت / جمال ناجي - عمان
(د. ن) ، ١٩٩٣
(١٤٨) ص
ر. أ (١٩٩٣/٣/٢٤٠)
١ - القصة العربية أ - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب ١ ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠٨
تلكس ، LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الأولى
١٩٩٣

جمال ناجي

الحياة على ذمة الموت

صدر للكاتب

* الطريق الى بلحارث / رواية، منشورات رابطة الكتّاب الأردنيين ، ١٩٨٢ .
* وقت ، رواية ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع / عمان ، ١٩٨٤ .
* مخلفات الزوابع الأخيرة ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٨ .
* رجل خالي الذهن ، قصص ، دار الكرمل للتوزيع والنشر ، ١٩٨٩ .

حقوق الطبع محفوظة

غير المقيم

كان ينظر الى أعضاء جسمه على أنها جنود مجندة لخوض معركة طموحاته في هذه الحياة ، وكلما ازدادت طموحاته ، زاد من رقابته الفولاذية على أولئك الجنود : أعضاء جسمه !

لم يستبعد ان يحيك أولئك الجنود الذين يعتقد باخلاصهم ، مؤامرة صغيرة تعرقل طموحاته ، فتودي بها أو به :

ألا يمكن أن تستسلم المعدة لتأثير المنبهات والاحماض وانفعالات النفس فتفتح في كيانه ثغرة القرحة ؟ ألا يمكن ان يتسلل الى جسمه « فيروس » مستهتر ، فيحدث فيه فتنة الحمى ؟!

كل شيء جائز ، لا أمان إلا بالاطمئنان ! لذا اعتاد اخضاع جسمه الى فحوصات وتحليلات مخبرية دورية ، من أجل تفقد سير الحياة في ذلك الجسم ، وكان يقاوم بصمات السنين ومياسمها ، وسائر الارتخاءات والترهلات البدنية المحتملة ، بنظام ثابت للمشي الصباحي المتعب ، كما يفوّت على قلبه فرص التشنج او الاضطراب او الخفقان ، من خلال التدليكات والمساجات الصباحية والمسائية لمنطقة القلب من صدره المشعر ، ذلك الصدر الذي انطبع في مخيلة المدلكة التايلاندية « كيم »

فحفظت تضاريسه ، تماماً كتفاصيل كفها الصغيرة القوية ، وصار بمكنتها وضع اصبعها وهي مغمضة العينين ، على أيّ من بقاع ذلك الصدر العريض ، لتقول بلكنتها المستعربة :

هنا القلب ، هنا الأضلاع ، هنا الترقوه !

فيشعر بالامتنان لتلك المرأة التي استوردها من بلاد القصدير لغايات التدليك والمساج .

أما هي فأتقنت عملها ذاك أكثر من الرجال ، بل ان عضلات بدن نوفل ، وغضاريفه ، وعظامه ، كانت تتفصّل تحت أصابعها الموجعة الممتعة ، فيحس بنشوة تجتاز حدود احتماله ، وحدود جسمه المنكفىء على بطنه :

يا لأصابعك يا كيم !

يقولها بصوت عريض يتذبذب من قعر حنجرته ، فتتبسم هي دون أن تنبس ، وتحس أن مهمتها شارفت على الانتهاء .

لكن عملها مع زوجته هديل صار صعباً ، فبعد أن غزت السمنة بدنها ، لم تجد تلك المدلكة ما تمسك به غير كتل مثّاة من اللحم الرخو ، مما قلب متعة هديل الى نوع من الألم الفظيع الباعث على الصياح ، ثم الصراخ ، ثم الشتم ، فالبصق ، فالامتناع عن تلك الرياضة الموجعة !

وعلى عكس زوجته ، اعتاد نوفل مراقبة وزن بدنه ، كي يحول دون استقطابه للدهون والشحوم التي تثقل الهمة ، وتحاصر القلب والشرايين :

على الحياة أن تستقيم له ، كي يتمكن من إتمام ما لم يستطع اتمامه ، على امتداد الأعوام التي انقضت من عمره المديد . .

* *

نوفل يمارس حياته بمسؤولية أبعدته عن كل ما من شأنه التآمر على تلك الحياة : كالتدخين ، او الافراط في تعاطي الكحول ، أو السهر الطويل ، أو فوضى ساعات النوم .

أما خسائره الجسدية التي تعقب مواقعاته الطويلة لزوجته هديل ، فتلاشت منذ أن خطر له ذلك التشابه المتحامل بين هديل وبين البقرة !

فهديل تغيرت بعد أعوام من زفافهما ، نمت في جسدها بذور السمنة ، فاض لحمها ، ظهرت الأخاديد بين ثنايا ذلك اللحم المترهل حول خاصرتيها وبطنها وصدرها ، وحول رقبتها التي غلظت ، وخديها اللذين تهدلا أسفل ذقنها حتى كادا يخفيانه !

لم تعد هديل تلك المرأة الرشيقة ، بل لم تعد تستحضر في روحه وجسده غير أحاسيس الملل والتقزز . .

* *

خطر واحد ظل يتربص بنوفل دون أن يتمكن من وقفه :

انه الارهاق العصبي الناجم عن طول تفكره وتفكيره في التخوم الممكنة للحياة على هذه الأرض !

كان يخاطب نفسه ومساعديه ، كلما صادف أن خسرت مؤسسته احدى الصفقات أو العروض ، فيقول ، بأن الخسارة التي لا يتم تعويضها ، تصير خطوة على طريق الموت ! ويضيف ، أن من الممكن تعويض الخسارات ، ومحاصرتها ، بل تحويلها مجرد فطريات صغيرة في بحر أعماله الشاسع ، أما حين يموت المرء ، فإنه لا سبيل الى تعويضه أو حصر موته ! لا سبيل !

* * *

يسمونه الضبع !

يقولونها فيما بينهم بشيء من الارتياح ، أمّا من أين جاءت هذه التسمية ؟ متى ؟ كيف ؟ فأسئلة تجاوزها زمان العاملين في الأوساط المالية والمؤسسات ، إضافة إلى أن ذاكراتهم الزاخرة ، لم تعد مستعدة للانشغال في تاريخ هذا اللفظ .

نوفل يذكر جيداً كيف انطلقت تلك التسمية ، ولماذا انتشرت على ألسن الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه ، وكيف التصقت به بعد أن أقام ذلك الحفل الليلي ، على شرف واحد من الشعراء العرب الذين حضروا إلى عمان ، من أجل المشاركة في واحد من مهرجانات الشعر .

لقد دعا الى ذلك الحفل لفيفاً من السفراء وزوجاتهم ، ومدراء عدد من الشركات والدوائر الحكومية ، ووزيرين نافذين ، وستة من الوزراء المتقاعدين ، دعا كل أولئك الى حفل خاص أقامه احتفاء بالشاعر الذي تربطه به صلة مصاهرة عتيقة .

في ذلك الحفل ، ألقى الشاعر عدداً من قصائده التي استحوذت على الحاضرين ، فصفقوا مطالبين بالمزيد ، فتفتحت قريحته ، وامتدح نوفل بعدد من أبيات الشعر حضرته آنئذ ، واذ انتهى ، أطال الحاضرون التصفيق ، فانسل من بين الضجيج صوت رفيع طريف الوقع ، توجه الى الشاعر بسؤال خبيث عن معنى كلمة « نوفل » !

وعلى الرغم من الاجابة اللبقة التي قدمها الشاعر حين قال ، أن كلمة نوفل تعني الكريم المعطاء ، إلا أن ذلك الرجل تساءل من جديد ، عما اذا كان ثمة معنى آخر للكلمة ! حينئذ امتنع الشاعر المتحرج عن التعليق ، فألح الرجل تحت وطأة الكحول التي أذهبت تخوفاته ووقاره ، بل أيده المدعوون الذين لم يدركوا نواياه الخبيثة ، واذ انضم صاحب الإسم اليهم ، انفرط عقد التحفظ على لسان الشاعر ، فقال :

كلمة نوفل تعني ايضاً ، الضبع القوي !

* *

موظفو نوفل ، استقبلوا تلك التسمية السينمائية التي لاحقتهم أيضاً ، بلا اكتراث ، غير أنهم أحسوا في دواخلهم بأنها ستضفي مزيداً من الرهبة الى حضورهم المميز !

جماعة الضبع ؟ ليكن ! ما الخطأ ؟ ألسنا كذلك ؟

كانوا يخاطبون بعضهم بعضاً بمرح ، أو بغرور ممزوج بمشاعر الحظوة والقوة ، ذلك أنهم عُرفوا في الأوساط المالية بقدراتهم المذهلة على ارباك

حركة أسعار الأسهم ، والعملات ، وأوراق المال ، عبر ابتلاع أو تقيؤ الآلاف منها ، وعبر اغراق السوق بشائعات عروض التعطيل والمضاربة ، وارسال المندوبين ذوي الكفاءات العالية الى بلدان العالم !

وعلى الرغم من وجود جماعات أخرى ، لا تقل تأثيراً عنهم ، الا أن « جماعة الضبع » تميزوا بحضور غامض مربك لتلك الجماعات التي يتمترس افرادها بالحذر ، مما يزيد من ارباكهم .

* *

في ذلك الحفل لم يمتعض نوفل بسبب تفسير الشاعر ، انما بسبب انشغال زوجته هديل ، بتناول أصناف المأكولات على المائدة البيضاوية :

كانت تأكل بنهم ، غير عابئة بما يبدر عن الآخرين ، وبما تحمل نظرات النساء والرجال اليها ، من معاني أثارت سخطه ، فكاد يفر من نفسه ، بل كادت أصابعه الغليظة تفلت من يديه ، وتطبق على رقبتها المفلطحة !

تسمية الضبع لم تثر نوفل لسببين ، أولهما ثقته العميقة بنفسه وبقدراته ، ثانيهما ان التفسير المعجمي للكلمة ليس مدعاة للضحك ، ولا للاحساس بالضغف ، انما هو مدعاة لتعزيز صفة القوة الى حضوره المكثف !

على أن ما أزعجه بحق ، انه لم يجرب ولو مرة واحدة ، أن يبحث عن معنى ذلك الاسم الذي التصق به منذ ولادته العسيرة ، بل قبل تلك الولادة التي كادت تودي بحياة والدته ، ذات الجسد الرقيق المتعب ،

والجبين الناعم المستدير ، والشفتين الدقيقتين اللتين نطقتا بعد صعداء الولادة :

لقد خرجت من فم الموت !

قالتها ، ثم انصاعت الى ضرورات الغريزة المتوارثة ، فانهالت بحنينها وقبلاتها على رضيعها الذي لم يكن غريباً ، بقدر ما كان عنيداً !

كان عنيداً منذ الشهور الاولى التي شاهد خلالها لون الحياة ! بل ان احساساً موحشاً مثيراً للذعر ، دهم والدته في أحد المساءات ، حين رضع من ثديها فترة طويلة دون أن يرتوي ، واذ حاولت سحب حلمتها من فمه ، ضغط بلثّتيه على تلك الحلمة ، فطاوعه حليبها ، وحين كررت محاولتها بصبر أمومي ، أعاد الضغط بشراهة ، فتألمت ، انتزعتها من فمه بقسوة ، فصاح منكباً بفمه الفاغر الصغير على ثديها !

حينها نظرت اليه بعينين مشفقتين ، لكن مستغربتين ، ودهمها احساس بأن ذلك الرضيع يريد امتصاصها حتى العظم :

كان جسده متجمعاً متقوقعاً حول نفسه ، وضاغطاً على أحشائها مثل كتلة مقوّاة من العناد ، وللحظةٍ مسّ أعماقها ذعر خفي ، مبعثه ذلك الرضيع الذي تضمه الى صدرها ! ذعر أشبه بذاك الذي ينتاب المرء اذ يحط على جسمه فجأة ، صرصار تائه عنيد :

انتزعتها من فمه ثانية ، فهالها مشهد قطرة الدم التي نزّت من تلك الحلمة المتألمة !

شيء آخر زاد احساسها بعناده المبكر : كانت تدير وجهه جانباً كلما وضعته في سريره المعدني كي ينام ، وتحرص على أن يلامس خدّه

وسادته الصغيرة ، غير أنه يحرك رأسه حتى تصير مؤخرة ذلك الرأس على الوسادة ، وعيناه في سقف الغرفة !

وعلى الرغم من محاولاتها الدائبة لإدارة رأسه جانباً ، خشية تقيئه واختناقه أثناء نومه ، إلا أنه أصر على العودة الى الوضع الذي يريد : مؤخرة رأسه على الوسادة ، وعيناه في سقف الغرفة !

لقد أدى هذا الوضع بمرور الشهور ، الى اتساع رقعة وجهه ، نظراً لطراوة جمجمته ، واستجابتها الى التشكل العرضي الذي أدى الى استدارة رأسه ووجهه ، وحال دون التشكل الطولي لتلك الجمجمة .

تلك الاستدارة غدت ، بعد أن كبر ، مبعث فخار يحسه كلما حدثته أمه عن عناده المبكر ! ذلك أنه هو الذي تحكم منذ طفولته الاولى ، بتشكيل رأسه ووجهه !

* * *

هيفاء مختلفة ! هيفاء شيء آخر !

حين ولجت مكتبه أول مرة ، استطاعت ان تدخل صوتها برشاقة وعناد الى لب عظامه ، حيث النخاع الشوكي الذي يشل المرء ، او يهبه متع الاحساس وآلامه :

انتصبت على الكرسي الجلدي أمامه ، لفت ساقاً على ساق غير عابئة بالجزء الذي انكشف من فخذيها ، ثم استلت من العلبة الحمراء سيجارة رفيعة طويلة ، اشعلتها بهدوء ، وعادت تلتفت اليه بعينين نافذتين .

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

هي تعرف ما لديها ، وتدرك ان لساقيها وفخذيها تأثير الواحات في قفار المفاوز ، لكنها تلك الظهيرة ، لم تقصد استدراج نوفل الى جسدها ، فتلك هي فجاجة الكثيرات من النساء ، وذاك هو الغباء الحقيقي للرجال الذين يقعون في شرك الاستدراج ، فيعتقدون أن المرأة لا تكشف عن فخذها إلا لإثارة شهواتهم !

هيفاء أرادت النفاذ الى ذات نوفل وأعماقه ، عبر مشاغلته بمشهد فخذيها المكشوفين ، وما يثيانه من أراجيع مثيرة مهيمنة .

لقد استطاعت بكلماتها وآرائها غير المترددة التي أطلقتها على مسمعيه ، حول عملها السابق ، وعلاقتها بالصيرفي الذي أوصى بها ، ثم حياتها الاسرية ، وتعليمها ، وحتى آرائها في الحياة ، استطاعت أن تهدم الكثير من جدران الحالة الصلدة التي يختبىء في بؤرتها نوفل الحقيقي !

أما حواجزه الأخرى ، فتصدعت تباعاً ، ذلك أنها نهضت عن مقعدها ، اقتربت منه ، وقفت الى جانبه ، مدت يدها منحنية الى الأمام ، تناولت ورقة بيضاء من الحافظة المربعة أمامه ، أمسكت قلمه الذهبي الملقى على مكتبه ، وضعت الورقة على زجاج الطاولة ، ثم بدأت تشرح له فهمها لضوابط التسلسل الوظيفي ، ومسميات الوظائف وهياكلها ، مستعينة بالخطوط والمربعات والدوائر التي رسمتها على تلك الورقة .

كان شعرها الأسود الطويل يرتخي على كتفيها وصدرها المندفع ، فيلامس ذراع نوفل الذي ظل متمركزاً في مقعده ، كفّه أسفل فكه ، وعيناه ترقبان بحيادية غريبة ، طقوس التفانيها !

وبدلاً من أن ينتشل نفسه من ذلك النسيج الذي ضربته حوله ، ظل صامتاً مصغياً لهيفاء التي توقفت عن الكتابة ، وشرعت تعد على أصابعها بنوداً توضيحية ، ثم عادت تكتب على الورقة الصغيرة ، فازداد ذهولاً أمام ذلك الاختراق العنيد الذي لم يجابهه من قبل !

لكن تجربته الطويلة في الحياة ، أعانته على النفاد من نسيجها العنكبوتي ، ومن سطوة حضورها الشيطاني :

أطال النظر في عينيها السوداوين ووجهها الناعم ، مستعيداً أشلاء هالته التي عادت تتنادى وتتلملم من جديد :

يا آنسة ، ما تحدثتِ به جميل ، لكن العمل معنا كالسير في طريق وعرة ، تذكري هذا دائماً !

* * *

اعتاد موظفو نوفل استنفار آذانهم وعيونهم وكل جوارحهم اثناء استماعاتهم المتحفزة الى تعليماته ، أما اذا اخفق احدهم في استيعاب عباراته ، فإنه يستدعي موظفاً آخر ، معرضاً على ذاك الذي لم يحسن الفهم : يتركه الى تأنيبات ذاتية قاسية ، يجلد خلالها نفسه الغافلة ، بل لقد بلغ الأمر بواحد من مسؤولي مؤسسته ، أن اعتلى الشحوب وجهه على مدار الأيام الستة التي أعقبت اخفاقه في فهم مضمرات عبارة نوفل ، يوم وصف العمليات التي تقوم بها المؤسسة ببيع وشراء الأسهم ، بأنها في تسارع مستمر ، وبأنها تجاوزت الخطوط البيانية للعمليات المشابهة في العام المنصرم ! فرد ذلك المسؤول المساير ،

مستأصلاً اجابته من بديهة موهومة حضرته حينئذ ، فعززت نبرة صوته :

سنعمل على تقليص تلك المبيعات اعتباراً من اليوم ، سيدي !

غير أن رسالة نوفل لم تتضمن هذا المعنى ، انما حملت دعوة لاستنفار الموظفين ، من أجل مواكبة التسارع في تلك العمليات ، لا تقليصها حسبما فهم ذلك المسؤول سيء الحظ !

* *

على من يريد البقاء مع نوفل ، أن يكون في مستوى الحيز الذي سيشغله ، عليه ان يمتلك من القدرات والملكات ما يؤهله للحفاظ على ذلك البقاء الذي يعني : ان علاواته ستتسارع ، وستتاح له فرص مرافقة نوفل في بعض اسفاره ، وجلساته التفاوضية ، وموائد العمل ! سيحظى بالمكافآت ، ويمثل المؤسسة في السوق المالي وأمام الكثير من مؤسسات المال : سيسطع نجمه في تلك الأوساط فتحترمه .

موظفو نوفل يتسابقون على أداء مهماتهم ، يستميتون من أجل تنفيذها بسرعات قياسية ، بل انهم لا يتورعون عن اللجوء حتى الى الأساليب التي لا يجيزها القانون ، من أجل تحقيق غاياتهم تلك : المهم ، ما هي النتيجة ؟

هكذا يقول لهم ، أثناء لقاءاته بهم ، وخلال قراءاته السريعة لإنجازاتهم ومحاضر اجتماعاتهم مع مندوبي الشركات الأخرى ، لكنه ، على الرغم من ذلك ، ظل يأخذ على الكثيرين منهم ، تلكؤهم في

عرض ما يودون قوله أمامه : بينه وبين الرضا مساحات وعرة شائكة يصعب اجتيازها :

انهم أبطأ من السلاحف ! انهم لا يحسنون سوى اختراع عبارات التقرب !

كان يتبرم كلما أصابه الضجر،أمام سكرتيرته التي أدركت أن واحداً فقط يروق له من بين كل موظفي المؤسسة ، انه عزت الذي لولا قدراته وملكاته المتوقدة لما تمكن من استيعاب المغزى العميق للنجاح في الحياة ، فهو اضافة الى حنكته وبديهته الحاضرة ، مسلح أبداً بتفاصيل تمنحه جرأة الحديث في حضرة نوفل : ان له ذاكرة متيقظة تسعفه في تقديم اراء زاخرة بالمعلومات التي تعين رئيسه على اتخاذ القرار :

هذه هي مشكلتهم يا سيد نوفل !

ترد هيفاء ، محاولة تخفيف حدة الضيق الذي يلم به ، جراء ضجره من بعض موظفيه، أولئك الذين تعج آراؤهم بالزوائد اللفظية، وعبارات الإتّكاء التي تربك الافكار وتشوهها ، بدلاً من أن تمنحهم فرص التقاط الانفاس :

لكنهم يتعلمون ، أنهم أفضل من غيرهم بكثير يا سيد نوفل !
واذ يبلغ به الضيق ذروته ، يقول بصوت مدوّم :
ليس في هذه المؤسسة غير عزت !

فتؤيده على الرغم من ضيقها وضجرها به : هيفاء أذكى من أن تبدو أمام رئيسها مجرد محرّضة ، لاسيما أنها أدركت منذ أعوام ، اهتمامه الاستثنائي بعزت الذي تمكن من التسلل اليه ، بكلماته المكثفة الموحية ، وعباراته المسددة بجرأة نحو غاياتها :

ثم إن وجهه باسم ، على الرغم من الندبة البنية التي تشبه ورقة تين صغيرة على يمين رقبته ، تلك الندبة التي تذكّره أبداً بوالدته ، حين قالت له بأنها في شهور حملها ووحامها به ، تشهّت التين دون أن يحضره والده لها ، مما أدى الى ظهور ندبة التين البنية الداكنة على رقبته .

* *

كانت هذه الحكاية مبعث تحفُّز في نفس عزت ، لذا لم يتمكن من رؤية قسمات وجهه على حقيقتها المسترخية ، فكلما نظر في المرآة ، صفعته تلك الشهوة الندبة ، فتحفزت نفسه وتقاطيع وجهه أمام المرآة ، وربما لهذا لجأ منذ صغره ، الى اطلاق تلك الابتسامة التي تميزه حتى في أحلك الظروف ، لكي يبعد عن وجهه الشجري الابيض ملامح التجهم التي تصفعه كلما واجه المرآة أو تذكر الحكاية !!

نظرات عزت لا تخلو من المراوغة ، فهو أحياناً يؤثر النظر نحو أصابعه او حذائه ، كيما يتفادى التقاء عينيه بعيني محدثه ! غير أنه دائماً يقرن استماعه الى الآخرين ، باستماعاته الى خطابات نفسه الصامتة واستنتاجاتها السريعة ، فيشاغل محدثيه بابتسامته البارعة المفاجئة :

أن يستقبل المرء أقوال الآخرين ! قد يبدو هذا الامر سهلاً ميسوراً ، لكنه عندي مختلف ، فمثلما تكشف تلك الاقوال مايظهر أصحابها ، فإنها تكشف ايضاً ، ذاك الذي يبطنون !

* *

كان يرى في « عزت » انتصاراً لفلسفته في هذه الحياة ، ونجاحاً لا يقل عن نجاحه هو ، في الخروج من رحم أمه رغم العقبات التي وصفتها له بعد أن كبر : انه نجاح مختلف عما حققه في اعماله ، فعزت تحول بقدرته الى رجل آخر ، جديد ، خارج من معمله الخاص الذي انتج الكثيرين غيره ، لكنهم لم يطابقوا المواصفات التي أرادها !

واحد فقط استطاع أن يكون تماماً مثلما أراد : انه عزت ابن السائق !

انجازان يفتخر بهما نوفل أمام نفسه دون ان يصرّح بهما : عناده المبكر الذي أدى الى تحكمه في تشكيل وجهه ورأسه ، ثم عزت الذي تشكل حسب رغبته هو !

* * *

وهواجس الموت تتنادى لحظة خلوده الى فراشه ، قبيل النوم :

تُحلِّق مثل كائنات كهفية في مخيلته التي تدعوه الى التريث في اغماض جفونه ، من أجل اقصاء تلك الكائنات :

تريث يا نوفل !

يسمع الصوت أو لا يسمعه ، فيبقي عينيه مفتوحتين ، واجمتين في سقف غرفته الزاخر بمجسمات الجبس الوردية ، يبقيهما مفتوحتين حتى تخذلانه ، فينام ، على الرغم من ايمانه أن في النوم موت مؤقت ، وأن ساعات النوم ليست سوى ساعات موت مدفوعة مقدماً ، كالفوائد البنكية ! كالاستحقاقات اليومية التي يتوجب الوفاء بها في أوقاتها !

ويبرهن لنفسه صحة ايمانه هذا ، بتذكُّر الصباحات التي كانت تعقب ليالي أرقه ، في بدايات نسج عالمه الممتد حيث : الصداع الذي يستحكم في مؤخرة رأسه ، الاحمرار الذي يستبد بعينيه ، والارتخاء الذي يفكك مفاصله :

لا بأس ! ليكن ! فهي البداية ليس الا !

هي المقدمات المتعبة لعالمه الذي انبنى على مدار السنين ، منذ عودته المظفرة بشهادة علوم التجارة :

لندن مدينة تزخر بالحياة ، وعمان حزينة جرداء ، هضاب ، مساحات خالية إلا من الموات الصحراوي ! لا زالت عمان صغيرة بعد كل هذا الغياب !

ثم واصل استعراض أطراف المدينة من نافذة الطائرة قبيل الهبوط ، وتوصل بسرعة ، الى أن الزمان يسبق عمان عشرات بل مئات من السنين :

ساجد نفسي هنا ! سأغزوها بما تيسر لي من علم ومعرفة يفوقان بالتأكيد ، الخيال المتواضع لمتعلميها وتجارها ومثقفيها :

عمان أصغر من أن أطلق عليها صفة المدينة ، عمان ليست سوى دودة عمياء بعد !

* *

كلما تذكر الأعراض الصباحية التي اعقبت ليالي أرقه ، ازداد اقتناعاً بأن النوم موت مؤقت ! وأن تلك الأعراض ليست سوى تحذيرات ومطالبات شرسة يبديها كائن الموت ، حينما يتخلف المرء عن دفع استحقاقه اليومي من النوم :

منذ زمن بعيد ، وضع نوفل حداً لهذا التخلف الخطير ، بأن نظم ساعات نومه السبع ، باشراف صارم من مدبرة منزله ، وصار يشعر بشيء من الحصانة المؤقتة ازاء هذا الموت الذي يبغضه في دخيلته ، ويهادنه في يومياته وليلياته !

ولقد تمكن عبر مهدئاته تلك ، وعبر التنظيم الدقيق لساعات نومه ، وطعامه ، ونشاطه ، وأعماله ، أن يخفف وقع فكرة الموت في نفسه المشرئبّة !

* *

لكن تلك الفكرة عادت تراود أحلامه بإلحاح ، إثر مشاركته القسرية في جنازة صاحبه الذي فجر دماغه ، عند واحد من أرصفة عمان الخالية إلا من هياكل الموت المخلّصة . يومها صاح على غير عادته :

خدعني بانتحاره !

وهيفاء ، سكرتيرته التي فجعته بالنبأ ، وقفت على بعد ذراع واحدة من كتفه :

لكنه مات يا سيدي ! مات !
قالت بفزع ، فأقطب :

هذا الرجل لا يمكن أن يموت ! حتى لو مات ، فلأنه خبأ الاموال التي في حوزته في مكان ما ، لكي يعود اليها !

متى يا سيدي ؟
في زمن آخر يا هيفاء ! أنت لا تعرفين شيئاً !!

* *

لقد اضطر نوفل الى المشاركة في جنازة ذلك الصيرفي ، بسبب الاشاعة التي سرت في أوساط المدينة بسرعة الحريق ، تلك الاشاعة التي أخرجت العناكب من شقوقها حفاظاً على بقائها ! فقد تردد أن الكثيرين من رجال المال أفلسوا وهربوا من البلاد ، تحت وطأة انكشاف أوراقهم ، وتجاوزاتهم ، والتزاماتهم التي بلغت حدود الطغيان على حضورهم المالي ، وأحالتهم مجرد مدينين مرتبكين ، يديرون مؤسسات لم تعد لهم ، ويملأون مقاعد تململت بهم ، ويتفوهون بكلمات وأرقام تكشف ارتباكهم وافلاسهم وتضاؤل وجودهم .

كان لا بد لنوفل من أن يظهر على الملأ ، فعلاقته المالية بالصيرفي المنتحر ، معروفة للكثيرين من رجال المدينة وعيونها ، ولقد أحس بالفجيعة أثناء سيره في تلك الجنازة : فجيعة مدمّاه مربكة لا علاقة لها بمجرد الموت ، انما بأسباب أخرى كثيرة ، مختلطة وعميقة : في ذلك اليوم : بالتحديد ، في الساعات المهشمة التي أعقبت مشاركته في تلك الجنازة ، واستحمامه الجنوني المتعب في منزله ، ثم عودته المنكّسة الى مكتبه ، قال لسكرتيرته بمرارة :

مات صاحبك يا هيفاء ، لكن لا بأس ، سأعوض هذه الخسارة الصغيرة ! ما دمت حياً فكل شيء قابل للحل !

وعلى الرغم من كوب الحليب المبستر الذي تقدمه له الاسبانية « أورتنسيا » قبيل النوم ، من أجل افشال أية مؤامرة قد تقوم بها معدته او أمعاؤه ضد مخيلته النائمة ، على الرغم أيضاً من امتثاله الآلي لموعد نومه المحدد ، الا أن هواجس الموت عادت تفتك بحصون عزلته في غرفة نومه ، بل رأى نفسه تلك الليلة ، سائراً في طريق جليدية طويلة ، خالية من الكائنات والأصوات : طريق بلا شواخص او معالم او أي أثر للحياة ، وحين تشقق الجليد تحت قدميه ، راعه أن لا وجود للأرض تحت تلك القشرة المتشققة ! واذ اتسع الشق تحت قدميه ، سقط في هوّة عميقة مظلمة ، فصاح من أحشائه بصوت أيقظه من كابوس ليلته العصيبة تلك : حينئذ فتح باب غرفته ، فرأى الاسبانية عبر بساط الضوء الذي انفرش على أرضية غرفته حال فتحها ذلك الباب ، رآها بملابس نومها البيضاء الشفافة التي تخللها الضوء المنبعث من الممر الجانبي ، فتوضحت معالم ساقيها وفخذيها أمام عينيه :

ماذا جرى يا سيدي ؟

قالت بمسؤولية امرأة كبر الانسان فيها .

مجرد حلم !

وتابع لهاثه الجاف المتشقق ، بينما استدارت خارجة ، ثم عادت وبيدها كوباً من الماء البارد تجرّعه ، ثم وضعه على حافة سريره الجوزي المعتم ، غير أنه سقط من يده المرتجفة مستقراً على السجادة الفارسية في وضع عمودي ، فنظرت أورتنسيا باستغراب الى ذلك الكوب الذي لم ينكسر ولم ينقلب :

كأنك وضعته بيدك يا سيدي !

فمطّ رقبته إلى أسفل ، وإذ رأى الكوب أرخى ابتسامة خبيثة ، وأعاد رأسه الى وسادته قائلاً :

واقف ! مثل حظي في الحياة !

فتضاحكت ، على الرغم من أنها لم تدرك أبعاد عبارته تلك ! ثم انحنت لتلتقط الكوب ، فشمخت مؤخرتها ، انبسط ظهرها ، وبدت له مثل فرس تدعوه الى الركوب ، بل مدّ يده ليمسد ظهرها ، تماماً مثلما يفعل الخيّال قبيل امتطاء ظهر مطيته ! غير أنها اعتدلت في وقفتها ، تراجعت الى الوراء خطوة دون أن تطرف عيناها الرماديتان .

عينا أورتنسيا تكمنان تحت حاجبيها اللذين يستديران فوق زاويتيهما ، ليرتفعا قليلاً قبل أن ينحنيا برقّة نحو نقطة النهاية ، أما سمرتها ، فتشف عن احمرار مرئي ، يتخفّى وراء بشرتها السمراء التي ايقظت شهواته من سباتها الاستوائي !

وإذ تنبّه الى شخير زوجته هديل ، المنبعث من الغرفة الملاصقة لغرفته ، نظر الى عيني أورتنسيا ، فبادلته بنظرة متواطئة توحي بالمشاركة في السخرية من تلك المرأة التي لا تكف عن الشخير .

وفي لحظة اشتعاله بالرغبة الحامزة ، قال لها ، بأن به حنين الى الأندلس ، وإلى ابي عبدالله الصغير رغم بكائه على أطلال ملكه الضائع ، والى أصوله العربية التي :

صنعت المجد في بلادكم العظيمة يا أورتنسيا !

فتبسمت له ، فاستطرد :

مؤكد أنك تنحدرين من اصول عربية عتيقة .

* *

وهاجس الموت ، عاد يجتاح روحه صبيحة اليوم التالي ، وتملّكه طيلة فترة استنشاقه الهواء الصباحي في حديقة منزله ، وأثناء ممارسته رياضة المشي ، وخلال استحمامه ، وارتدائه ملابسه ، حتى أثناء جلوسه في المقعد الخلفي المخملي لسيارته الأمريكية التي أقلته بوقار الى مبنى مؤسسته .

وفي محاولة منه للتخلص من دورة الموت في ذاكرته الفزعة ، سأل سائق سيارته الأسمر الفارع الطول ، عما اذا استمع الى النشرة الجوية ذلك الصباح من آذار ، فردّ دون ان يحرك رأسه :

مشمس وجميل ، لا وجود للجبهات الباردة ولا للمنخفضات الجوية ، هكذا قالت النشرة والله أعلم يا سيدي !

وصمت ، فعمّق بصمته أفكار الموت التي استعادت حضورها المكثف في ذهن نوفل ، وحين وقفت السيارة أمام بوابة المؤسسة ، اندفع نحوها رجل بشوش الوجه ، ذو شاربين فكهين ، فتح بابها الخلفي ، ألقى على مسمعي نوفل تحية الصباح بصوت مشرق ، ثم رافقه الى مكتبه ، مروراً بالجدران والأبواب الزجاجية لمكاتب موظفيه ومساعديه الذين تناهضوا تباعا حال سماعهم وقع خطى قدميه ، غير أنه توقف فجأة أمام الباب المفضي إلى غرفة سكرتيرته هيفاء :

نظر الى مكتبها فوقفت كالصدى ! تبسّمت ، ألقت على مسمعيه تحية الصباح متسائلة في صمت ، عن صفعة التجهّم في حاجبيه المعقودين ، وجبهته العريضة العميقة ، وعينيه العدائيتين اللتين تركز بؤبؤيهما على أضمومة الاقحوان في مزهريتها !

حينئذ فضّ هالة الغضب التي رافقت توقفه المفاجيء ، بأن أمر هيفاء ، على غير عادته ، بالقاء تلك الأزهار خارج مكتبها ، بل خارج مبنى المؤسسة ، بل بعيداً عن متناول احساسه بالوجود المفزع لتلك الأزهار !

ولقد أحدثت كلماته القاسية انهيارات في مذانب التفاؤل التي بدأت يومها به ، بل ان روعة صباحها تبعثرت على سنان الاحتمالات التي تدفقت في رأسها : تمنّت لو تعود الى بيتها ، كي تستعيد اللحظات المبكرة ، التي أشرعت خلالها نافذة غرفتها الشرقية حيث : الصباح المفاجيء ، السماء الزرقاء ، الشمس الخضراء ، ولسعات البرد المتسللة من فم تلك الليلة الشتائية .

ما ان فتحت نافذة غرفتها حتى أحست بحركة الحياة واشراقها ، تنفست من هواء الاعالي النقي غبطة وتفاؤلاً ، تحركت بخفة في بيتها دون أن توقظ والدتها ، وشرعت تعد نفسها بمرح من أجل الذهاب إلى عملها :

ارتدت فستاناً أحمر يليق بأحاسيس الانطلاق التي غمرتها ، سرحت شعرها الأسود ، وخطت حاجبيها الرفيعين ، وضعت على خديها وذقنها مسحوقاً ورديا ، ثم لوّنت شفتيها بأصبع أحمر دهني الملمس ، فبدا وجهها اكثر اشراقاً ، حتى ان كلمة «Fresh» التي يستخدمها الرجال لداعبة نسائهم وعشيقاتهم ، طرقت ذاكرتها فور انتهائها من اعداد نفسها !

كان مظهرها طازجاً بحق ! وعابثها احساس نزق بأن أهل عمان كلهم ينتظرون خروجها ، فصارت تدندن مستمدة من اقبالها الغريب على الحياة ، دقة اللحن وشجاعة الاستمرار ، واذ لمحت باقة أزهار

الاقحوان في المزهرية المنتصبة على حافة النافذة ، انقضّت عليها ، مثل طائر عثر فجأة على فريسة سهلة !

حملتها ، ثم علقت حقيبتها الجلدية الصغيرة على كتفها ، وغادرت بيتها باتجاه المؤسسة حيث مكتبها ، وحيث : نوفل الذي اصابه الفزع ، إذ رأى الاقحوان في مزهريتها . تلك الازهار التي أعادت الى ذاكرته صورة الصيرفي المنتحر ، وجنازته ، وتابوته ، وقبره ، والاكاليل الملقاة عليه ، والاقحوان المطل من أغصان تلك الاكاليل !

لم يستطع نوفل اخفاء تجهمه ونزعه ! فازهار الأقحوان لم تعد سوى علامات موت تعتلي سيارة سوداء ، تجرّ ذيلاً طويلاً من السيارات تسير بخشوع ، بل ان تأمله المراسيمي الصامت للأزهار الملقاة على تراب الجدث ، أثار في نفسه احساساً ، بأن ذبولها السريع تحت الشمس ، انما هو تعبير شيطاني عن ذبول الحياة ذاتها ، واحتفاء غامض مسخّر لانتصار الموت على الحياة .

* * *

الحيـاة الأبعـد

على يمين الشارع المحاذي للمدرج الروماني وسط عمان ، قال « أبو نوفل » لسائق « اللاندروفر » الرصاصي اللون :

توقف هنا .

لقد أراد اغتنام فرصة اقترابه من ذلك المكان الأثري ، كي يشاهد وابنه نوفل ، بيته العتيق قرب الأعمدة الحجرية ، ذلك البيت الذي اختبأت بين جدرانه وخلفها ، كل الحكايات التي سردها ابو نوفل أمام ابنه عن حياته وأيامه الماضية .

أما السائق ، عبدالله زهدي ، فوجد في تلك الوقفة فرصة لإصلاح مروحة السيارة التي علا صوت رفيفها ، منذ لحظة انطلاقها من امام مبنى وزارة الصحة ، باتجاه قرية الهدى .

كان نوفل يقترب من عامه السادس عشر ، حيث بوادر البلوغ المؤرق ، والأسئلة المحيّرة حول تصلّب بزّيه ، وحول الكتلة العضلية الموجعة تحت إبطيه ، ثم الشعر الذي ينمو على استحياء عند سالفيه .

لكن تلك الاسئلة لم تخرج عن نطاق ذاته ، إذ لم يحاول الاستفسار من والده عن أي من تلك المظاهر الشيطانية ! أما شكوكه وتقديراته ،

فأوصلته الى أن ما يعتري بدنه أمر متصل بنموه في الغالب ، على الأقل ليس مرضاً ، ثم :

لِمَ العجلة ؟! لماذا لا أنتظر وأرى ، هل ستدوم هذه العلامات أم أنها ستزول ؟ ستكبر أم ستظل هكذا ؟ وماذا أقول لأبي لـو أردت البوح أمامه ؟

غير أن الطفرة التي حدّدت المعالم الجديـدة لبدنـه ، لم تنتقل بشكـل مفاجىء الى عقله ووجدانه ، فهو واسع الحيلة منذ طفولته ! هذا ما نما اليه اثر استراقه السمع الى ما يقول والده ، حين يختلي بوالدته ذات الشعر الفاحم :

نوفل أذكى من كل اخواته !

فترد مستمِدّة من دفء الأمومة رغبة في خلق انصاف قسري ، حتى في ملكات أطفالها الخمس :

لا تقل هذا يا أبو نوفل ، انهن ذكيات مثل شقيقهن !

ماذا تقولين ؟ وماذا يساوي ذكاؤهن أمـام نوفـل الذي تمكن من أن يخدعني ويرغمني ، على غير رغبة مني ، على نقله من المدرسة الحكومية الى المدرسة الخاصة ؟ أنا ! أنا الذي لا يستطيع أحد في هذه الدنيا أن يضحك على عقلي ، حتى معالي الوزير ، الذي قال لي يوم اكتشفتُ خدعة شهادات الولادة المزورة « انت ثعلب ! » أتدرين لماذا قالها لي ؟ لأنني أنا الذي اكتشفت اللعبـة بعد أن مهـر معاليـه تلك الشهادات بتوقيعه ، استناداً الى تنسيب واحد من المـوظفين المـرتشين ! ويـومها حـاول ذلك المـوظف ، تخيلي ، حـاول أن يخدعني ، ويستَـلَّ رزمـة

الشهادات من مجر مكتبي ، بغية اخفاء دلائل جريمته ! لكن هيهات أن يتمكن من خداعي ! واحد فقط فعلها ، انه ابنك نوفل ، هذا النمس ! وتقولين لي البنات ذكيات ؟!

* *

بعد دقائق من العبث بمروحة السيارة ، تمكن السائق من اكتشاف الخلل الذي أصابها ، فاقترب من مديره الأشيب ، مبيناً له بلهجة خبير ، قدرته على اصلاح تلك المروحة اللعينة ، دون الحاجة الى استدعاء مصلح السيارات ، ثم مسح العرق على جبهته بكم قميصه البنّي ، لكن أبا نوفل غادر اللاندروفر الرصاصي اللون ، مصطحباً ابنه دون التعليق على أقوال سائقه ، دون الاستماع الى تأكيداته ، على ما قام به من صيانة للسيارة ، قبل التحرك من امام مبنى الوزارة ، المحاط بنباتات المجنونة ، المجنونة فعلا في نموها !

حاول السائق أيضاً ، تقريع حظه العاثر على مسمعي مديره الصارم ، مديره الذي لا يرجع عن قراراته المنصفة أو القاسية أو حتى المجحفة :

يا الله !

قال قبل أن يشرع باصلاح المروحة ، فقد اعتاد الاستئناس بوجود الله الى جانبه كلما ألم به خطب ، أما أبو نوفل ، فوضع كفه على كتف ابنه ، وسارا مبتعدين عن السيارة ، مقتربين من الأعمدة الاسطوانية ، فاندفعت الى انفيهما رائحة عتيقة غابرة ، أنعشت ذاكرة ابي نوفل ،

فاستعاد الكثير من معلوماته عن غزوات الرومان ، ومخلفاتهم في البلاد ، وآثارهم :

الاسكندر المقدوني كاد أن يضع الكرة الأرضية في قبضة يده يا نوفل ! الرومان كانوا هنا ! أترى تلك الحجارة ؟ انها من مخلفات عصرهم البائد ، لكن الذين قاموا ببنائها هم العرب . . لقد أراد استثمار الوقت والمكان ، فسرد على مسمعي ابنه الكثير من دروس التاريخ وأحداثه ، واقترب من الأعمدة الاسطوانية التي : طالما أفصحت ملامح السياح عن افتتانهم بجمالها ومقاومتها للزمان .

واستذكر في تلك اللحظة ، ما سمعه فيما مضى من السنين ، عن محاولات احدى البعثات الأوروبية ، الاستيلاء على تلك الحجارة والأعمدة ، من أجل نقلها وضمها الى الممتلكات الأثرية لبلادها ، فصمت ! كف عن الحديث ، تذكر أن البعثة تراجعت في اللحظة الأخيرة عن فكرة الاستيلاء على تلك الأعمدة :

وقيل في بلدة عمان حينئذ ، بأنه تبين لأعضاء البعثة أن تكاليف مجازفة اقتلاع تلك الحجارة من أماكنها ، ثم نقلها الى أوروبا ، تفوق مردودات نصبها في متاحفهم ، اضافة الى ما قد يجره هذا « النقل » من احراجات لقنصل بلادهم ، وللعلاقات التي تربط البلدين ، في حال انكشاف عملية الاقتلاع والنقل .

. . وحتى لو سعيت لدى الجهات الادارية المحلية ، من أجل انتزاع موافقتها على منحكم هذه الفرصة ، قال القنصل لرئيس البعثة ، فإنني على ثقة بأنهم سيطلبون أموالاً طائلة لقاء هذه الحجارة ! سيعتبرونها كنزهم ! الأهم من هذا أيها البروفسور ، الأهم أنكم لو أخذتم

الأعمدة والحجارة ، فمن يدري ما الذي سيحدث في المستقبل ، اذ قد يأتي يوم يطالبوننا فيه باعادتها ! انها مسألة شعوب أيها البروفسور !

ثم نفث جملة من دخان غليونه في فراغ المسافة الفاصلة بينهما ، فتنهد رئيس البعثة :

لكنها آثار أوروبية يا سعادة القنصل !

ثم أفلت ابتسامة متواطئة :

انها لا تليق بأصحاب هذه البلاد ، فهم لا يدركون أهميتها ، ونحن ، نحن الذين نستطيع معرفة قيمة الآثار ، أما هذه الشعوب ، فأكثر تخلفاً من قبائل الـزولو والتـام تام ! اننـا لو حصلنـا على هـذه الأعمدة ، فسنكون قدمنا لبلادنا وتاريخنا خدمات جليلة لا تساويها الاحراجات الدبلوماسية التي ذكرتموها في مستهل حديثكم . .

* *

. . وقيـل في بلدة عمان حينئـذ، بـأن تـراجـع البعثـة عن تلك الفكرة ، انما يعود فى أساسه ، الى منعة ربانية منحها الله لهذه الأرض ! أما الكواليس الخلفيـة المستيقظة في البلدة ، فقـد أسرت بأن أولئـك الأوروبيين ، استولوا سراً على الكثير من محتويات المتحف المحلي أسفل تلك الحجارة ، غير أن الأوروبيين « ملاعين » لا يريدون اعلان هذه الحقيقة ، مما يؤكد ـ قيل ـ بأنهم اكتشفوا اشياء ذات قيمة عالية في تلك السراديب المعتمة !

أما خبراء البعثة فأعدوا تقريراً تناول التفاصيل المذهلة التي توصلوا اليها بعد اجراء دراساتهم وقياساتهم وحفرياتهم في ذلك المكان ، كما

التقطوا المئات بل الآلاف من الصور الفوتوغرافية القريبة والبعيدة لتلك الآثار ، وأرفقوها بتقريرهم الذي تضمن ، بأنه تم استخدام المدرج في عهود الرومان لأغراض فنية ورياضية وترفيهية وسياسية ، كالتمثيل ، وعروض السيرك ، والمصارعة ، وتنفيذ احكام الاعدام شنقاً ، او طعناً ، أو سَحْلاً !

لكن ما أدهش سكان عمان ، ان الأوروبيين توصلوا في تقريرهم ، الى أن حجارة ذلك المدرج الأثري ، مشربة بدماء المئات من الآدميين الذين سحقت ابدانهم تحتها أثناء نقلهم لها ! وأن تلك الحجارة على الرغم من وداعة مظهرها النهاري ، وعلى الرغم من شموخ أعمدتها التي تطاول السماء ، الا أنها تجثم فوق المئات ، بل ربما الآلاف من بقايا الجثث ، التي لم يستطع اصحابها اتمام أشواط مشاركاتهم القسرية في حملها وترتيبها ، مما أدى الى هزالهم ، ثم عجزهم ، ثم استسلامهم ، ثم موتهم ، ثم اعتبارهم جزءاً من البنية التحتية الأساسية لتلك الآثار التي اقيمت ، خلال عهود التعاقب التاريخي على هذه الأرض !

* *

وبقدر ما أدهشت تلك الوقائع والنتائج سكان عمان عند نشرها ، أثارت الذعر في نفوس الكثيرين ممن يقطنون البيوت القريبة من المدرج ، ومنهم أبو نوفل الذي ورث منزله الحجري المحاذي للمدرج ، وأقام فيه طيلة السنوات التي سبقت اطلاعه على تلك النتائج الشيطانية :

فنحن نعيش قرب جثث متعفنة اذن ؟!

قال ، كغيره من سكان المنازل القريبة من المدرج ، وتحولت أحاديث أولئك السكان عن الجثث ، الى هواجس ليلية ربطوها بالكثير من الظواهر حولهم ، ففسروا اسباب روائح المياه العادمة في الوادي اسفل المدرج ، على انها كريهة بسبب امتزاجها ببقايا الجثث ! قالوا بأن الأصوات التي يسمعونها ليلاً ليست سوى انين صادر عن الارواح المزهقة لأولئك الموتى ! وفكر بعضهم في الرحيل عن تلك المنطقة ، بعد أن تحول مشهد الأعمدة الاسطوانية ، الى اشباح ليلية نسجت النسوة ، والأطفال ، وبعض الرجال ، حكايات مثيرة حولها !

وعلى الرغم من أن أبا نوفل حاول اقناع زوجته بأن ما يقال ليس سوى خرافات سخيفة ، إلا أن مخاوفها ازدادت بازدياد حكايات النسوة حولها ، بل انها بلغت حد تخيل رؤية الأشباح ، وهي تمد رؤوسها عبر نوافذ البيت ليلاً ! وسماع أصوات قرع الحجارة ! والأعمدة التي تتمايل مرتطمة ببعضها ، بفعل تململ الأرواح تحتها ، فتصيح مذعورة ، ويفز أبو نوفل من نومه ، فزعاً من صياح زوجته التي نحل جسدها ، وبرزت عظام وجهها ، واضطربت حياتها ، وقيل أنها بلغت حافة الجنون ، مما دفعه الى الاسراع في معالجة تلك المشكلة التي أرقته ، بأن باع ذلك المنزل ذي الجدران السميكة ، لامرأة شركسية مولعة بالآثار وحكايا التاريخ ، ثم ابتاع منزلاً آخر عند الأطراف الشمالية لجبل اللويبدة . . ذاك هو منزلنا العتيق .

أشار باصبعه مخاطباً ابنه نوفل .

أترى ذلك الباب الأخضر العتيق ؟ انه باب المنزل الذي عشنا فيه

سنوات طويلة ، لكنني ارتكبت غلطة حينما أطعت والدتك وبعته ، كان من الممكن أن أبيعه بسعر باهظ لو انتظرت بضعة أعوام . .

* *

لكن أبا نوفل توقف عن حديثه حين سمع صوت سائقه الأسمر الذي هتف من بعيد بابتهاج : سيدي ، كل شيء تمام !

ثم نفض الغبار عن بنطاله الخاكي ، فاقترب وابنه من السيارة ، دون الالتفات الى السائق الذي جنبهما مشقة الوقوف في ذلك المكان ، حيث الغبار الأثري ذو الرائحة المعدنية ، والشمس الحارقة ، وروائح البول المنبعثة من تلك الآثار التي اعتاد مكروبو عمان الالتجاء اليها كلما فاضت مثاناتهم :

متى سيتعلم الناس ، أن الكلاب فقط ، الكلاب هي التي تبول في الأماكن الأثرية ! غير أنه توقف عن الاستغراق في تساؤلاته حال مداهمة ذلك الخاطر له ، اذ :

أين سيبول مكروبو عمان اذا كانت تفتقر الى المراحيض العامة ؟
وأحس أن تلك واحدة من مهامّه :
فلماذا لا أستحدث مراحيض عامة ؟

قال في نفسه ثم استقل وابنه اللاندروفر الى جانب السائق ، فانطلق بهما بعد تلبُّث .

أما نوفل ، فأعجب بذلك السائق الذي تمكن من اصلاح السيارة . وعلى العكس من والده ، لم يتردد في اظهار اعجابه ذاك على مسمعي

والده الذي امتعض بسبب خروج ابنه عما حدده له خلال السنوات المنصرمة :

لا تعبر صراحة عما في خاطرك يا نوفل ! شيئان لا يجوز افشاؤهما : أسرار العائلة ، وأسرار مشاعرك وأفكارك أنت !

هكذا كان يقول لابنه الذي نسي يومها تلك النصوص والتوجيهات ، وأبدى اعجابه العلني بالسائق الذي أضاع في غمرة ابتهاجه المتواصل ، طريق قرية الهدى ، واضطر الى البحث بعينين متيقظتين عن أي من شاخصات الطرق التي تشير الى مدخلها !

عبثاً حاول العثور على ذلك المدخل المغمور الى الشمال من عمان ، واذ سأله المدير عما اذا أضاع الطريق ، أجاب منكمشاً وراء المقود :

سأجدها يا سيدي ، قريباً سأجدها !
ثم أرخى ابتسامة باهتة مذعورة ، محاولاً امتصاص غيظ مديره الذي صاح :
انت لا تعرف في هذه المدينة سوى لون الاسفلت !؟

غير أن ذلك السائق ، تمكن من العثور على مدخل القرية بعد ساعة من بحثه المستميت الذي أوصله ، مصادفة ، الى ذلك المدخل الترابي ، المتفرع من الشارع الرئيسي ، بلا شواخص أو دلائل سوى صخرة قمرية اللون ، مهشمة الأطراف ، منتصبة الى يسار المدخل الذي يكاد يكون سرياً !!

حين رأى عبدالله زهدي بيوت القرية الحجرية المتباعدة المنتشرة في السفح المنبسط ، تنفس صعداء وظيفته ، لكنه أصيب بعدها بخيبة وانقباض أديا الى تقلُّصِهِ ثانية امام مديره ، وأمام شيخ القرية الذي

استضاف في ديوانه الشاسع ، ذلك المدير ، وابنه ، وسائقه ، والطبيب البدين الذي وصل القرية بحقيبته قبل وصول المدير ، قبل وصوله بأكثر من ساعة ! كما استضاف عدداً من رجال القرية الذين حضروا افتتاح المركز الصحي ، وصفقوا لأبي نوفل حينما دفع بيده المتقشرة ، باب الغرفة البيضاء التي اطلق السكان عليها اسم المستوصف .

* *

لقد اكتشف ابو نوفل يومها ، عبر استغراب مضيفه الشيخ ، وعبر توضيحات الجالسين في الديوان ، بأن الطريق من وسط عمان الى القرية لا تستغرق أكثر من أربعين دقيقة بالسيارة ، وبأن سائقه لا يعرف في الطرق ، بدليل أن المسافة استغرقت أكثر من ساعتين من المسير الشاق ، في هذا الحرّ الذي :

أتعب عطوفتكم !

ومما زاد من سخطه وتوعداته الصامتة لسائقه ، ما قاله الشيخ من أنه أرسل ثلة من الشبان :

من اجل استقبالكم عند مدخل القرية ، لكنهم عادوا الى بيوتهم دونكم ، بسبب تأخر عطوفتكم ، بل انهم توقعوا ، وأنا مثلهم ، بأنكم أجّلتم موعد افتتاح المركز الى وقت لاحق ! توقعت هذا لأنني أعرف مشاغلكم الكثيرة .

ثم التفت الى نوفل الذي تعمد الجلوس الى جانب السائق :
ما شاء الله .

قال متقرباً ، فيما امتدت كف يده لتمسد شعر نوفل ، فأحس بالانقباض ، ليس ضيقاً بيد الشيخ ، انما بسبب انتباهه الذكي الى ضمور السائق ، وتقلصه في جلسته ، بل ان الشيخ ايضاً تنبه الى ذلك ، فعمد الى زحزحة حديثه الثقيل ، والانتقال به الى ما يمكن فعله من أجل المساعدة في انجاح المركز الصحي ، والخدمات التي يستطيع طبيب المركز تقديمها الى سكان القرية .

* *

كان من الممكن أن تستمر أحاديث أبي نوفل حول المركز طيلة صمت الطبيب الذي لم يقل شيئاً ، ولم يقاطع المدير ، ولم يعترض على ما قاله من أن بإمكان المركز تقديم كافة انواع الأدوية والعلاجات للسكان ، كما لم يبد تحفظه على عبارة « الاكتفاء الصحي للقرية » ، التي أطلقها المدير في غمرة تحمسه لعلاقته الجديدة مع الشيخ ، تلك العلاقة التي تطورت فيما بعد ، وأسفرت بعد عام واحد ، عن امتلاك ابي نوفل تسعين دونماً من الأراضي الزراعية المحيطة بالقرية :

علي أن أدّخر شيئاً لابني ولشيخوختي ، كان يفكر :

من يدري ، فالحياة مثل ابن آوى ، غادرة ، ثم ان هذه الأرض رخيصة ، رخيصة جداً !

يا لفضائل الصداقة ، يا لطيبة الشيخ الذي ابتاعها من أجلي بتراب النقود !

لكنه ، بعد ان تملك تلك الأرض ، قام بتسييجها بالأسلاك الشائكة والزوايا الحديدية ، فامتعض الشيخ وسكان القرية ،

استهجنوا « تلك الفعلة » غير المألوفة لديهم حتى ذلك الحين :

ولو ؟ وهل ستطير الأرض ؟ هل يخاف أن نسرقها منه ؟

لكن ابو نوفل واجه تذمرهم بالافصاح عن رغبته في تحويل قفار تلك الأرض الى مزرعة للاشجار المثمرة ، ووعد بالبدء في تنفيذ ذلك المشروع في قريب الوقت ، مبيناً أنه سيعود بالنفع عليهم ، لأنه سيخلق لرجال القرية فرص العمل فيه مدة طويلة .

* *

وعلى الرغم من أن أبي نوفل لم يكن طبيباً ، انما ممرضاً قديماً أنسته وظيفة الادارة خبرات شبابه ، إلا انه اجاب على كل استفسارات الجالسين في الديوان ، حول آلام الحنجرة ، والمعدة ، والرشح ، والزكام ، ولسعة الأفعى ، والعقرب ، وضربة الشمس ، وعضة الأرض ، والإغماء ، وديدان الامعاء :

من الضروري أن يظهر المامه بالصحة البدنية ، لأنه ببساطة ، مدير صحة ! ولأن الطبيب البدين لم يعترض على المغالطات التي ارتكبها ، فهو يستطيع بجرة قلم فصل الطبيب من وظيفته ، أو نقله الى أي من المناطق النائية ! يعرف الطبيب هذا ويصمت ! فيتحول حديث ابي نوفل المسهب عن المركز ، الى حديث آخر مسهب ، عن الصحة وضروب الأمراض وكيفية معالجتها .

أما ابنه فظل سجين احساس بتأنيب الضمير ، وبالتعاطف مع السائق الأسمر الذي اصيب بالجزع في تلك الجلسة ، ومما زاد في تعميق ذلك الاحساس ، ان المدير في اثناء عودتهم ، وبّخه من جديد ، واتهمه

بالجهل في الطرق ، بل أسرَّ في أذن ابنه عن رغبته في استبدال سائق آخر به ، أكثر معرفة بالطرق ، مما دعا نوفل الى الاحتجاج الصاخب أمام والده حال عودتهما الى البيت ، وأمام والدته التي رقّت لحال السائق الطيب الذي :

يشتري لنا الخضار والفاكهة واللحوم وكل مستلزماتنا، انه لم يتبرم ولا مرة من المهام المتعبة التي نكلفه بها ، بما في ذلك توصيل نوفل واخواته الى مدارسهم ، وانتظارهم حين الاياب ، لن تجد أفضل من هذا السائق حتى لو بحثت بالابرة في بيوت عمان ! لن تجد أفضل منه يا ابو نوفل !

* *

حين أحيل أبو نوفل الى التقاعد اضطر عبدالله زهدي الى الانفكاك عن عمله ، بسبب السياسة الادارية الجديدة للمدير الجديد الذي استبدل به سائقاً آخر ، على الرغم من مبالغته في احترام ذلك المدير ، وعلى الرغم أيضاً من أنه صار سجين « اللاندروفر » الرصاصي ، بعد أن كانت فرص مغادرته المديرية أكثر من ساعات تواجده فيها ، واذ دخل غرفة المدير مستفسراً عن سبب تسريحه من عمله ، أجابه دون أن يرفع رأسه عن جريدته :

مشكلتكم أنتم غير المصنفين ، انكم لا تدركون ما تقتضيه مصلحة العمل !

* *

تلقّى ابو نوفل بضجر وضيق ، صدمة الفراغ الذي احاط به ، اثر احالته الى التقاعد ، فبدأ يتنقل بين منزله ومزرعته ، محاولاً الاحتيال على الوقت المتباطىء المتواطىء ، لكنه لم يقرر الانتقال وأسرته الى المزرعة ، ذلك أنه أصيب بالملل بعد أسبوع من اقامته فيها ، واكتشف انها لم تشكل رداً عملياً على مؤامرة التقاعد ! فهو لا يحسن القيام بأي عمل فيها :

وماذا أفعل في المزرعة ؟ ما علاقتي بمراقبة عمال القطف ورعاية الأرض والأشجار والابقار ؟ ثم ان هذا لا يليق بي ، انه بالكاد يليق برجل درويش مثل عبدالله زهدي !

تبّاً لهذا الزمان السخيف ، الذي لا يميز الرجال العظماء عن السابلة !

* *

شـرفة النفـوذ

لم يكن النفوذ مجرد فكرة او مشروع مغامرة اقامت في رأس نوفل ، انما فعل يومي ، هاجس امتد فيه عبر الأيام والسنين ، ترجل من رأسه متجولاً في يوميات حياته واعماله وعلاقاته ، وسائر التفاصيل التي لا يستطيع العيش دونها . لكنه لم يفكر يوماً ، بأن الكثير من عاداته الصباحية المسائية ، إنما هي استجابات لإملاءات لا تقل في نفوذها عن تعليماته التي يصدرها الى الآخرين !

لم يخطر له ان التزامه الصارم بها ، سيحيله الى واحد من أولئك الآخرين الذين يستقبلون التعليمات ، وينفذونها بسرعة قياسية .

كان يرى أن الأمور يجب أن تسير بمشيئته :

بإمكانه تحريك الناس والأشياء مثلما أصابعه الغليظة ، دون أن يكلف نفسه حتى عناء مغادرة كرسيه او مكتبه أو سريره ! ويجد متعة في سيطرته حتى على الأشياء في بيته : يستخدم أجهزة « الريموت » التي تتحكم عن بعد في اضاءة مصابيح منزله ، واطفائها ، وفي تشغيل أجهزة التلفاز ، والفيديو ، والستيريو ، والكومبيوتر ، والبوابة الحديدية

السوداء للمرآب ، فيعيش متعة تقترب من تلك التي يحسّها حين يطلق تعليماته الى موظفيه المتيقظين ورجاله المنتشرين في البلاد وخارجها .

* *

غير أن الزمان كان يتقدم داخل ثيابه وجسمه الآخذ في الارتخاء ، وفي مؤسسته التي شهدت صراعاً مريراً خاضه عزّت الذي :

صنعته بيدي هاتين !

في البداية تمثل عزت دور مديره باتقان يثير التساؤل حول ما اذا كان ممكناً استنساخ الرجال في هذه الحياة !

أكثر من هذا ، انه أحال الأفكار التي حرص نوفل على غرسها في ذهنه الى قناعات تعلو قانون الجاذبية :

عوّد المسؤولين والموظفين في المؤسسة على تنفيذ تعليماته بحرفية يندر وجودها عند موظفي هذا الزمان !

كان يعي أبعاد العلاقة التي خصّه بها نوفل ، ويدرك أن حظوته المعلنة تلك ستدعم مواقعه في المؤسسة ، ستعينه على تأكيد حضوره المتنفذ أمام الآخرين ، أولئك الذين صاروا يهابونه ، او يكيدون له ، أو يتقربون منه ، بعد أن عينه نوفل نائباً له !

لم يكن متردداً أو متلكئاً :

أفضل السبل للسيطرة على الموظفين هي الاطلاع على دفاترهم وأعمالهم ، والتعرف اليها !

ثم قام بجولات يومية على مدار شهرين في أقسام المؤسسة ، قبل ان يبدأ العمل بصلاحياته الجديدة !

وعلى الرغم من اطلاعه على الكثير من أعمال مسؤولي وموظفي المؤسسة ، الذين أظهروا في حضرته انهماكاً غير عادي ، ونشاطاً يفوق الممكن ، إلا انه أتم جولاته مستطلعاً أعمال طاقم المؤسسة ، بمن فيهم موظفي السجلات والأرشيف ، ذوي الوجوه الشاحبة ابداً ، ومأموري المستودعات والاتصالات ، وعاملات الطباعة والتلكس والكومبيوتر والفاكسميلي ، ومندوبي المراجعات والعلاقات ، وممثلي المؤسسة في السوق المالي ، والمحاسبين وماسكي الدفاتر ، والمشرفين على حسابات المؤسسة لدى البنوك والمؤسسات المالية الأخرى ، ولدى رجل نوفل وعميله ، الصيرفي الذي تضخمت دفاتره ، وتشعّبت أعماله ، حتى راح يزاحم البنوك في قبول الودائع ، واحتساب الفوائد العالية للمودعين ، وامتصاص الأموال ، واقتراضها بفوائد خيالية ، وشراء الحصص في الشركات المالية الأخرى ، وتغذية الحسابات خارج البلاد ، بأموال المودعين التي يضمها الى الدورات المالية الأخرى ، فتعبر البلاد ، تماماً مثل بضائع الترانزيت ، ثم تخرج حاملة معها كل شيء :

بهذه الطريقة لن نحقق ربحاً ، بل اننا سنخسر !

كان الصيرفي يخاطب نوفل عبر اسلاك الهاتف ، كلما تلقى تعليماته الخاصة بتحويل الاموال الى خارج البلاد ، فيرد نوفل :

كم ستحتاج من الوقت كي تدرك أن لا أمان في بلادنا ؟

فينصاع من جديد الى نوفل الذي تمكن من أن يمد خيوطه حتى داخل الضفة الغربية ، حيث الصرافين ، وتجار العملات ، والنائمين على حزم الدولارات التي يهربونها الى الشرق ، رغم قيود الاحتلال الاسرائيلي ، ورغم قوانينه المدروسة ، المصممة لامتصاص أموال الشرق ، لا تسريب أموال الضفة الى الشرق :

ملايين الدولارات والدنانير ، ينقلونها بقدرة قادر الى الاردن ، او يحولونها الى أوروبا بايصالات رسمية ، يودعونها في حسابات غامضة يزودهم بها نوفل ، عن طريق عميلهم الذي يعرفونه ، الصيرفي :

كل شيء قانوني ! لا شيء يدعو الى الشك !

من الممكن أن يشك المرء بابنه وأخيه ، وصاحبته وأبيه ، أما ذلك الرجل ، الصيرفي ، العريض القصير ، الذي يوحي مظهره بخوفه الدائم من أن تفوته الأشياء ، فلا مجال للشك فيه :

تريدون ايصالات رسمية مني ، تفضلوا ! تريدون اجراء تحويلاتكم عبر البنوك ؟ احصلوا على ايصالات وشهادات منها ، الأشياء موثقة ، لا مجال للعبث ، فتفضلوا ، هذه هي فوائد ودائعكم لهذا الشهر ، تحققوا منها ، أعيدوا احتساب الفائدة ، الغلط مردود !

ويقيم الحفلات ومآدب الغداء والعشاء احتفاء بقدومهم ، فيتحادثون في كل الشؤون ، ويخصهم بالكثير من الاسرار : أسرار القوانين ، نوايا الدولة ، مخططاتها التي تتسرب اليه ، التغيرات المتوقعة ، أخبار الكواليس المالية ، لكنه يختار من تلك الأسرار والأخبار ما يخدمه ، وما يدفعهم الى التمسك به :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

كل الأسرار والأخبار تؤدي اليه ، تشير كالأسهم نحو الصيرفي الذي لم يحظ أبداً بود عزت :

في قلب هذا الرجل ، ثعلب حقيقي !

قال لنوفل الذي رد مبتسماً :

في قلب كل انسان ثعلب !

* *

ان أصير مسؤولاً عن أعمال أولئك الموظفين ، فهذا يعني أن ألم بتفاصيلها ، لأنني سأقوم بالتوقيع على أوراقهم ودفاترهم ، حينها سأكون موضع اختبار أمامهم ، وضابطاً لتجاوزاتهم وأخطائهم !

حينئذ شاع الرضا في نفس نوفل ، دون أن تفصح ملامحه عن أي من معالم ذلك الرضا ، بل انه ظل مسترخياً على كرسيه الضخم ، ممسكاً كعادته عن الثرثرة او الثناء !

كان يستمع ، يقيس ، يفكر ، يقرر ، ثم يصدر تعليماته بإيجاز شديد !

* *

لكن غاية النفوذ جرّت عزت الى صراعات مريرة مع الكثيرين في المؤسسة ، فلقد أحس منذ البداية ، ان بين المسؤولين من لم يرق لهم تطوره الوظيفي السريع الذي حققه ، بل انهم تصدوا له ، محاولين تخطئته ، وافشاله ، وتجاهله ، والاستنكاف عن تنفيذ تعليماته ، الأمر الذي دفعه الى استنفار ملكاته وعقله وروحه حتى أظافره ، تقدِمةً لإسكات تلك المواقع التي فتحت نيرانها باتجاهه دفعة واحدة !

فكّر في وسائل جديدة لتحقيق سيطرته ، فرسم الخطط الذكية والماكرة ، وتوصل الى ضرورة الاستفراد بالحلقات الضعيفة في المؤسسة وعزلها عن تلك القوية ، أصدر العديد من التعليمات المكتوبة وغير المكتوبة الى موظفي ومسؤولي الأقسام حول : الالتزام الصارم بساعات الدوام الرسمي ، والامتناع عن استقبال الزائرين ، إلا اذا كانت تلك الزيارات لغايات العمل ، كما منعهم من مضغ العلكة ، وتناول الحلوى ، أو أي من أصناف الساندويتشات التي اعتادوا احضارها معهم فيما مضى ، كما اوعز لواحد من الموظفين بعد أن قرّبه منه ووثق به ، بمراجعة ونبش الأوراق العتيقة في المؤسسة ، بهدف العثور على اخطاء لأي من المسؤولين ذوي الرؤوس القاسية التي انتقدت اجراءاته في السر والعلن ! ولقد تمكن ، عبر اكتشافه سلسلة الأخطاء والتجاوزات التي ارتكبها فيما مضى ثلاثة من كبار المسؤولين ، من أن يواجههم بها ، ويضعهم في خانة الحساب ، ثم الاعتراف بالأخطاء والذنوب ! ولقد أتاح له هذا ، أن يبقي سيف اكتشافه مسلطاً ، على رقاب اولئك المسؤولين التي بقيت مكشوفة امامه .

* *

لقد استبدل بمكتبه العتيق آخر جديداً، مزوداً بالخزائن الخشبية الكابية ، ذات التقسيمات الحديثة المضلّعة ، والمقاعد الجلدية الفاخرة ، والأجهزة ، والأدوات المكتبية ، واللوحات الفنية ، كما أفرغ المكتب المجاور لمكتبه ، ونقل اليه واحدة من الموظفات ، اهتدى اليها اثناء جولة التدرب التي قام بها في أقسام المؤسسة ، نقلها الى ذلك

المكتب من أجل القيام بمهام سكرتيرة خاصة له ، وكان في هذا مخالفة للعرف الذي درج عليه مسؤولو المؤسسة ، الذين لم يجرؤوا من قبل ، على المطالبة بوجود سكرتيرات لهم !

أكثر من هذا أنه صار يتجول في أقسام المؤسسة ويداه معقودتان خلف ظهره ، متفقداً سير العمل ، مكرساً بداياته المرعبة التي دعت الجميع الى السعي لكسب مودته ، بامتداح اجراءاته وتعليماته ! حتى ان احدهم قال امام جمع منهم ، مبرّراً وشاياته ضدهم ، بأن واقع الحال يقول : انج سعد فقد هلك سعيد !!

* *

كان يخوض معاركه مستفيداً من رصيد الأفكار التي انغرست في عقله وروحه ! ومما زاد نوفل اعجاباً وولعاً به ، أنه لم يلجأ الى الاستنجاد به ، أو طلب معونته ، بل لم يحدثه عن أي من تلك المناكفات والعراكات التي أحس بأنها شأنه هو ، كان يريد أن يثبت أمامه وربما أمام نفسه ، قدرته على تمثل الدروس التي تلقاها :

النفوذ يؤخذ ولا يعطى ، يفرض ولا يمنح !

ولقد تمكن خلال بضعة أشهر من تسلمه منصبه الجديد ، من تحويل موظفي ومسؤولي المؤسسة الى منفذين مخلصين لتعليماته التي يطلقها دون أن يرف له جفن :

هكذا أعد نفسه ! هكذا أراد أن يكون : شاب في أواسط العقد الرابع من عمره ، يريد القبض على أسرار الرجولة والسطوة ، بأفكار وقناعات راسخة ، وعبارات محددة صلبة ، وكلمات تخرج من بين

شفتيه ، مصحوبة باطلالة أعماقه المتماسكة ! بل أنه لم يتورع عن تضمين عباراته تلك ، معاني قاسية ، بهدف احراج أولئك المسؤولين الذين يستمعون اليه : يريد احراجهم أمام بعضهم بعضاً ! وارغامهم على التراجع وإلا : فسينزع اغلفة الاحترام التي اعتادوا التدثر بها أثناء يومياتهم الزاخرة بالتكلف ! بل إنهم صاروا يحسّون أمامه بالارتباك ، وانقسموا على أنفسهم في حضرته ، وفي غيابه ، وكان يخاطب نفسه كلما اختلى بها ، مبرراً قسوته تلك :

إنها مسألة نفوذ !!

* *

نوفل الصامت ، راقب ما يدور في مؤسسته ، منتظراً نتائج الصراع ، مثل سلطان يقبع في مقصورة مطلة على حلبة للمصارعة !

غير أن حظوة عزت عنده حملت رسالة واضحة الى مسؤولي وموظفي المؤسسة :

نوفل يقف وراءه ، على الرغم من أنه لم يباشر التدخل في تلك الجولات ، ربما لأن مصلحة مؤسسته تقتضي ابتعاده عن تلك الخلافات ، من أجل وقفها وحسمها اذا ما تجاوزت حدودها ، وربما لثقته الكبيرة بعزت ، وبقدراته المتميزة التي أراد التحقق من رهانه عليها :

ألم يعلمه الكثير من وسائل السيطرة على الآخرين ؟

ألم يصحبه الى المزرعة التي وجد فيها ، مكاناً مثالياً لتلقينه أسرار

النفوذ ؟ تلك المزرعة التي ورثها عن والـده دون أخواتـه المتزوجـات اللائي فوضنه ، أثر وفاة والدهن ، باستلام مستحقاتهن من ارثه ؟

لقد فعلن ذلك دون ان تطرف قلوبهن او عقولهن التي وثقت بـذلك الشقيق ، فأسلمنـه قياد الأسرة ، فاستولى على المزرعة ، بكل ما فيها من تراب وأشجار وآبار ومعدات ومولدات وبيوت وطيور وحيوانات !

استولى على كل شيء لقاء مبـالغ زهيـدة قدمهـا لهن ، تعويضـاً عن حصصهن فيها !

أما المؤسسة ، فكان أبو نوفل سجلها باسمه منذ انشائها ، غير أن ذلك العجوز أحسَّ بفظاعة الخطيئة التي ارتكبها بحق بناته الأربع ، وبحق نفسه ، حينما تلمس اقتراب نهايته :

كيف فعلتها ؟ لأجل ماذا ؟ وهل سينقذني نوفل من آخرتي ؟

كان يهجس ، ثم يقوم بزيارات الى بيوتهن ، يقدم لهن هداياه الأخيرة بعد أن تيقّن من صخب الدبيب المروع لنهايته :

مزيد من الاعمال الصالحة !

يقول مهادناً ايامه القادمة ، أيام الموت ، ونيران جهنّم ، وشواظها ، ثم عذاب رؤية الجنة دون بلوغها ! ذاك هو العذاب العظيم !

وعلى عكس ما ترسّخ في ذهنـه أيام صباه وشبابه ورجولته المعافاة ، من أن الحياة الآخرة محض خرافة ابتدعتها الأديان ، كي تقتحم عقول الناس وعواطفهم ، من أجل ترويضهم واخضاعهم لسلطانها ! على العكس من هذا ، تحولت الحياة الآخرة الى هاجس يومي يعتصر قلبه ، وحقيقة عتيقة استيقظت ، وتماثلت للشفاء فحاصرته :

لا بد من فعل شيء !

قال ، مثل من يتلهّى بإدارة معركة محكومة بالهزيمة قبل ابتدائها !
وكيف السبيل الى اصطحاب أموال الدنيا الى الآخرة ؟

فتستيقظ الاجابة من ركام السنين البعيدة ، سنين الكتاتيب والمدارس العثمانية :

الأمر بسيط ! وزع أموالك في وجوه تضمن لك حسنات في يوم الحشر !

ليس أمامك غير حل واحد : ان تقايض أموال الحياة الدنيا ، بحسنات تجدها أمامك بعد موتك !

الشيء الوحيد الذي يرافقك حينها هو أسهم الأجر والحسنات التي تبتاعها بأموال الدنيا ، لتبيعها في الحياة الآخرة ! أو قُل ، ان الأمر أشبه بحوالة او سفتجة تدفع قيمتها هنا ، قبل رحلة الموت ، وتتسلمها هناك ، في يوم الحشر !

لقد رأى في غمرة اضطراب نفسه وروحه ، ان بناته الأربع هن خير من يستحق أمواله المتبقية :

أَلَسْنَ من الأرحام ؟

لكن المؤسسة كلها سجلت باسم نوفل ، اضافة الى الأرصدة التي تم استثمارها في اعمالها .

ما الذي تبقّى ؟ قليل من الثروة ؟ هذه خطيئة والله ، خطيئة الشاطر الذي هو أنا ! كيف حدث هذا معي ؟ لعنة الله عليك يا نوفل . ألا

تـرق لحالي ، وأنت تعلم أنني سـأقف عاريـاً بين يـدي الله في يـوم القيامة ؟

كانا يذهبان الى المزرعة معاً ، حيث أم عزت التي ابيضَّ شعـر رأسها ، واخوته الأربعة القائمون على خدمة المزرعة ورعايتها :

تعال يا عزت أعلمك الصيد .

ويسير فيحاذيه :

لكنني لم اطلق رصاصة في حياتي !

ستتعلم ، ليس صحيحاً أن البداية صعبة دائماً ، فالذي ينتبه جيـداً يسبق البداية ، يضعها وراء ظهره ، فقط صوب واضغط على الزناد ، هذا كل ما في الأمر !

ثم يسيران في ادغال المزرعة حيث الحمام البري والعصـافير والأرانب البرية وطيور الشنار الكسيرة ، يدوي انفجار طلقة ، فتسقط حمامة من السماء :

يا لك من صياد يا سيد نوفل !

فيسلمه البندقية بخشونة الأب الذي يريد استـلال رجل من قميص ابنه :

خذ ، افعل مثلي تماماً !

واذ تحين لحظة الاطلاق يتردد ، فيسمع صوت نوفل الهامس الآمر :

اطلق يا رجل !

فيـطلق ويطير الحـمام دون واحدة ! تـظل تتخبط بدمـائهـا ، فيمـده برصاصة ثانية :

ضعها بسرعة في بيت النار واطلق !
أين يا سيد نوفل ؟
على الحمامة الجريح !
لكنها لا تستطيع الطيران ، يمكننا الامساك بها !
قلت اطلق هيا !
ويدوي الصوت من جديد ، تكف الحمامة عن الحركة ، بينما يبادره نوفل :
أنت لم تعرف بعد اخلاق الصيادين ، لا بد للصياد من أن يجهز على طريدته .
عجيب ! لماذا ؟
لكي لا تتألم ! الصياد الحقيقي يفضل الموت على الألم ! كذلك الطريدة !

* *

كان يلقنه الكثير من راسيات أفكاره في الحياة :
خذ هذه العصا الصغيرة ، لوح بها ، مدها أمامك الى أقصى حد تطاله ، مدها يا رجل ! در حول نفسك ، ابقِ على العصا ممدودة ، كم تقدّر قطر الدائرة التي ترتسم حولك ؟
حوالى ثلاثة أمتار ، لكن لماذا ؟
سترى الآن ، حاول الاتكاء اليها ، هل تستطيع ؟
فيرد عزت ، كالمغلوب على امره :
لكنها لا تنفع ، انها قصيرة .

حسن اذن ، اعطني اياها ، خذ هذه العصا الطويلة ، لوِّح بها ، مدها أمامك ، در حول نفسك ، ألم تلاحظ أن الدائرة التي ترتسم حولك اصبحت أكبر ؟

بالطبع ، ان قطرها يزيد عن الامتار الخمسة . لكنك لم تقل لي لماذا كل هذا ؟

أتكىء اليها ، هيا ، هل تنفع ؟
فيرد حائراً ،
أجل اجل ، انها تنفع ؟
الآن قل لي ، أيهما افضل ، الطويلة أم القصيرة ؟
الطويلة طبعاً !
لماذا ؟
لأنها أطول ؟
كلا يا عزت ، هذا ليس بالجواب !
لماذا اذن ؟

لأن في أعماقك رغبة في السيطرة ، ولأن العصا الطويلة حققت لك هذه السيطرة ومدت نفوذك على رقعة أوسع من الأرض ، دائرة قطرها خمسة امتار بدلاً من ثلاثة ، هل فهمت ؟ انها مسألة سيطرة ، نفوذ ، لا شيء غير هذا !

لكن التلويح بالعصا الطويلة متعب يا سيد نوفل !

فاقترب منه ، أمسك عضده الطري بقبضة يده الغليضة ، فرك لحم ذلك العضد مقتحماً ضعف عزت المتخفي تحت ملابسه :

على من يريد حمل العصا الطويلة ، ان يكون قوياً قادراً على استخدامها ، هل فهمت معنى النفوذ ؟

حينما فرك عضده ، تسرب الى نفسه احساس ساخن بانتهاك نوفل لكيانه ولاعتداده العارم بنفسه ، لكنه ابتلع ريقه ، مصغياً الى نوفل ، كي يتمكن من تتبُّع أفكاره التي بدأت تعبث في اعماقه وتهشم الكثير من حصونها :

لكن ماذا لو اراد الجميع تحقيق النفوذ الذي تتحدث عنه ؟
فتبسم الرجل الأسمر ذو الوجه المستدير ، شردت عيناه ، حلقتا فوق الجبال الشاهقة شمالاً :

من قال لك أن على هذه الأرض من لا يهمه النفوذ ؟ الكل يبحث عن النفوذ ، لكن لكل طريقته الخاصة ! أنا مثلاً ، أجد في المال وسيلة مذهلة لتحقيق هذه الغاية ، بينما يرى غيري خلاف هذا : نحن نسعى الى النفوذ ، أما اذا تطلب هذا السعي ان نصطدم ، فسنفعلها ، مع اننا نحمل ذات الهدف !

كان حديث نوفل مغموساً بالثقة التي اثارت عزت ، خلخلت أفكاره التي عرفها وحفظها منذ سنواته الاولى :

كيف تتصارعون وأنتم تحملون نفس الأهداف ؟ أيمكن أن يكون هذا منطقياً ؟

أجل ! فهذه هي الحقيقة التي نتجاهلها دائماً !

ثم تغيرت نبرة صوته لتتخذ ايقاعاً موحياً يتسلل الى الروع ، ثم يجتاحه :

الـذين يتصارعـون هم أولئك الـذين يحملون ذات الأهداف ؟ أهي مفارقة ؟ ربما !! فحينما يكون النفوذ غايتي ، ألجأ الى المـال من أجل تحقيق هذه الغايـة . أما الآخـرون ، ومنهم السياسيـون والمصلحون وسـواهم ، فيركضـون وراء الغايـة ذاتها : النفـوذ ! لكن أسـاليبهم تختلف ، كلنا نتسابق ، نحن في سباق مرير !

هكذا خاطب عزت الذي استمع اليه بعقله وجوارحه ، فتشرَّب كلماته وايحاءاته العميقة :

لكن الذين ذكرتهم يحملون اهدافاً جماعية تخص مصالح الجماعة ، ألا ترى بأن الأمر يختلف هنا ؟

وعاد الوجه المستدير الى الابتسام :

هنا الكذبة الكبرى ! مصالح الجماعة ، العمل الجماعي ، كلهم يرددون هذا الزيف ، وكلهم يعلمون أن النفوذ هو الغاية ، قل لي ، من هو الأكثر خطورة على الناس ، أنا أم اولئك الأوغاد الذين تتحدث عنهم ؟

لم يجب عزت ، دهمه الارتباك ، لكن نوفل :

سأريحك ، انـا استخدم نقـودي من اجـل تحقيق غـايتي ، أمـا هم فيسخرون أولئك الذين يسمونهم الجماهير ، هذا هو الفرق بيننا ، لكن العجيب حقاً ، أن الناس لا يحبون مجابهـة هذه الحقيقـة أو الكشف عنها !

واذ أضاءت ذهن عزت فكرة الرد ، سارع الى القول :

لكن بعض الزعماء يدفعون حياتهم ثمناً لمواقفهم وخدمة للجماعة !

يا عزيزي ، هؤلاء لا يدفعون حياتهم في الحقيقة ، انما يرتكبون أخطاء

قاتلة في أثناء سعيهم وراء النفوذ ، فيخسرون حياتهم ، تماماً كالذي تتعثر قدمه اثناء صعود الجبل ، فيسقط قبل بلوغ قمته ! خذ مني ، احساس الانسان بالحياة يتحقق عبر ما يمتلكه من وسائل تحقق له النفوذ ، والمال وحده كفيل بتحقيق ذلك ، لأنه قادر على أن يصنع من فنلندا ، أو جزر الواق واق وطناً !

* *

تلك كانت البدايات التي امتثل عزت خلالها الى نوفل ، قبل ان تتساقط مفاهيمه التي ورثها وحفظها منذ طفولته ، وأحس بأن تجارب الآخرين تعلِّم المرء الكثير مما لا يستطيع تعلمه أثناء تلكؤه في يومياته الصغيرة .

وأفكار نوفل نفدت الى لب اعماقه ، اما كلمة النفوذ ، فتخرج من فمه مصحوبة بجُمع نفسه ، بينما لا تكف عينه الأخرى ، الخفية ، عن مراقبة التفاعلات التي تدور في اعماق تلميذه !

كانت بذوره تنغرس في ذات عزت ، تتململ ، تنبت ، ثم تنمو بمرور الأيام فيتفقدها : يراقب أداءه ، علاقته بالموظفين ، يحاوره ، يستدرجه ، فيلمس بأصابعه التغيرات التي طرأت عليه ، وكلما حاول عزت ، ابطاء النمو السريع لتلك الغراس في نفسه ، يسارع هو الى إمطارها بأسباب البقاء والنمو :
المصلحون؟ رؤساء التجمعات ؟ الحزبيون ؟ الوعاظ ؟ كلهم يبحثون عن النفوذ عن طريق الجماهير ! هذا ما يمرمطهم أمام الأجهزة الأمنية التي تطاردهم وتتعقبهم بلا هوادة ، أما نحن فكل يوم نحقق خطوة جديدة على طريق النفوذ ، دون أن يعترض طريقنا أحد : انها مسألة ذكاء ، أيضاً !!

الحكايـــة

كنت واحداً منكم ذات حياة ، هل تذكرون ؟

لا تسيئوا الظن بي ، لا تنظروا الي بعيونكم المرتابة الحاسرة ، فالتغير ديدن الحياة . « ودورة الحياة » هي التي اقصتني عن زحام صفوفكم الزاخرة بالصياح والعرق وروائح الثوم والدموع !

امسحوا عوالق الدهشة عن عيونكم التي تتأملني باستهجان وسخط ، انزعوا من نفوسكم تلك الأفكار المدمرة التي تحملونها ، والنوايا السيئة التي تشبه حظكم في الحياة ، واعلموا ، أنني لست مارقاً من صفوفكم ايها الفقراء ، إنما منسحب ، وشتان ما بين الحالتين ! كما أن هذا القرار لم يعد بيدي ، إذ من العبث أن يتشبث المرء بفقره ، بعد أن يصيب الثراء !

أنا الآن غني ! مختلف عن ذي قبل ، ليس بالمعنى المثالي السخيف الذي يدعي غنى النفس او الروح ، إنما بالمعنى الحقيقي للكلمة ، أي أنني أمتلك مالاً وفيراً !

إن أعماقكم لتستشعر الخطر الآن ، لأنكم تدركون بأنني مطل على

حقيقتكم الكامنة في قعر تلك الأعماق ، لذا ستقولون ، لقد خاننا عزت بن عبدالله زهدي السائق !

* *

كنت مثلكم ، أتشبث بالحذر ، وانظر « بعين الريبة » الى الاغنياء ، لكن تلك العين لم تكن لمجرد الريبة ، انما للحسد ايضاً !

تعرفون صورة العين الوحيدة المفتوحة التي يخترقها سهم أحمر أو أزرق ، تلك الصورة التي تعلقونها على جدران بيوتكم ودكاكينكم ، من أجل رد العين الحاسدة ، او للتدليل على أن « الحسود لا يسود » .

ليس مهماً ان تتذكروها الآن ، فالمهم أن من يعلقونها هم أنتم !
فتخيلوا ، كيف يمكن للحاسد أن ينفي سيادته ، أو أن يحتج عليها ؟
ثم علام يحسدكم الناس ؟
في السابق وضعتني عين الريبة حيث تضعكم الآن ، في الخانة اياها ، سوء النية !
هكذا أنتم ، متعبون ، متعصبون لآرائكم ، وتعتقدون أنكم دائماً على حق ، اما الآخرون فهم على باطل ، لا شيء غير الباطل !

فتقبلوا انسحابي من صفوفكم بلا ضجيج او ضوضاء ، احتفظوا ما شئتم بنظراتكم وآرائكم ، تمسكوا بها تمسككم بأبنائكم ، رددوا الحِكَمَ والتهاليل والشعارات ، اتحدوا ، تناثروا ، احلموا ، خططوا ، ثوروا ، فهذه شؤونكم انتم . .

أما أنا ، فلم تعد هذه الأمور تهمني ، بعد ان نفضتُ عن ملابسي

واهابي ، ما علق بهما من غبار ، أثناء ركضي ولهاثي في ممرات لغوكم ، وأزقة افكاركم المعتمة !

وداعاً اذاً أيها الفقراء !
وداعاً يا أيام الشظف والبؤس !
وداعاً أيضا ، للمرأة التي كانت في يوم ما ، زوجتي !

* *

في تقاطيع وجهي ملامح حزن عتيق رغم الابتسامة التي تميزني ، وفي عيني الراسختين عمق وكتمان يصعب فهمهما !

هذا ما قالته لي سكرتيرة السيد نوفل ، ذات صباح حار .

أيامي توزعت بين مكتبي الصغير والمحاكم ، والمطاعم ، وبيوت الأصدقاء ، وبيتي الذي تأجرته في عمان ، بعد أن قررتُ الاستفراد بحياتي ، بعيداً عن أمي وأبي واخوتي في المزرعة .

أنا هكذا ، أحب الاستقلال ، لا أحب لأحد أن يشاركني حياتي !

على أن الكثير من ساعات خلودي الى نفسي ، ارتهنت الى هياكل خططي المجنونة التي ترسَّمَتْ كمضلعات النحاس في مخيلتي .

كنت أخطط ! وأسهر ليلي الطويل مفكراً متفكراً في تلك الحياة التي لم تعجبني !

والدنيا بدت لي خاوية خالية من البهجة ، على الرغم من أنني كنت محامياً مبتدئاً ، ومشروعاً لرجل ثوري على رأي عدد من أصحابي !

ومؤخراً قرأت ، بأن الحزن والايثار والشجاعة والحب والتمرد والثورة ، كلها قيم رومانسية .

هكذا اكتشفت بأنني كنت رومانسياً !

* *

وعلى الرغم من حذري الشديد ، إلا أنني وقعت في الشرك كالآخرين ، فتزوجتُ !

هي غلطة الشاطر كما يقولون ، إذ ما الذي دعاني الى ربط حياتي بامرأة تريد تسييرها حسب « الكاتالوج » ؟ لماذا أستحم كل يوم ؟ لماذا أبدِّلُ ملابسي الداخلية كل يوم ايضاً ؟ لماذا اضطر الى القاء تحية الصباح على مسمعيها ، ثم بعد كل هذا أجدها متبرّمة !؟

* *

لم أكن بحاجة الى سكرتيرة في مكتبي الصغير ، الا أن زوجتي أصرت على القيام بهذا الدور .

هكذا أحكمت طوقها حول رقبتي !

أما لماذا لم أبحث عن سكرتيرة من قبل ، فالأسباب عديدة ، منها أن دخلي من المكتب بالكاد يغطي مصاريفي ، فكيف يكون الأمر لو أنني وظفت سكرتيرة براتب شهري ؟

منها أن فُتات القضايا التي تسلمتُها لم تكن تتطلب وجود سكرتيرة . اضافة الى أنني لم أكن ميالاً الى تشغيل أحد في مكتبي ، اذ لو فعلتها

لصرتُ « صاحب عمل » وهذا سيُحْدِثُ « نقلة في موقعي الطبقي » حسب تعبير أصدقائي السياسيين ، الذين لم يفلحوا في ضمي الى صفوفهم ، على الرغم من مثابراتهم العجيبة !

* *

بعد أشهر من زفافي ، فكرتُ بديوني التي بلغت حدود الضجر ، فتحول النوم الى امنية إثر استحكام الأرق بي !

وفي واحدة من الليالي ، اندسست في الفراش لصق زوجتي ، وحسدتها حين لم أفلح في النوم مثلها .

فكرت في الحياة التي اغلقت عليَّ منافذ العيش والهناء ، وكلما مر يوم جديد ، ازداد الأمر سوءاً ، والعمل ؟

يوم زارني أبي اقترح علي أن أعمل مع نوفل !
ما الخطأ ؟
فكرتُ فيما قاله أبي .

آلمني جنبي الأيمن ، انقلبت الى الأيسر ، لكنني أحسست بأنني جثمت على نبضات قلبي ، بل ان ذلك القلب صار يجاهد تحت ثقل جسمي ، ربما من أجل الابقاء على حياتي التي لم تعجبني !

وخزني قلبي فاستشعرتُ الخطر ، انقلبت مذعوراً الى جنبي الأيمن ، ولعنت ذاك الذي قال أن « كل واحد ينام على الجنب الذي يريحه » !

من علامات جهل صاحب هذا القول ، أنه لم يأخذ بنظر الاعتبار ، أن

النوم على الجنب الأيسر يؤدي الى الضغط على جدران القلب ، وقد يوقفه عن العمل !

الأمر اذن ليس لعبة ، فقد يودي بحياة الانسان ان لم ينتبه ، هذا ما شكّكني في صحة ذلك القول ، هذا ما دعاني الى العزوف عن النوم على جنبي الأيسر ، فللّه در الجهل !

ما الذي يدعو المرء الى محاصرة قلبه وحشره تحت غمار جسمه ؟
الجهل كالحسد ، يبدأ بصاحبه فيقتله !

* *

أصابني الأرق في تلك الليلة المقمرة ، فالعمل مع نوفل صار هاجسي ! أدرتُ وجهي ناحية زوجتي النائمة ، انزلقت عن السرير ، مشيت على رؤوس أصابعي نحو الشرفة المكشوفة حيث ، قمر أيار الذي تقهقرت من حوله النجوم وامّحت .

متزوج ، وأتأمل القمر !! وبينما يغمرني ضوء القمر ، اذ بها تصحو من نومها ، مثيرة بصحوها صوتاً مزهقاً !

أفاقت ! وهل يجوز أن تتركني في لحظة سعادة كتلك ؟

أفاقت ، فخشيتُ أن تفاجئها وقفتي تلك على الشرفة ، وتظنني لصّاً يسطو على البيت ، فهي من النساء اللواتي تقشعر أبدانهن هلعاً ، اذا ما حرك الهواء ستارة النافذة !

ما توقعته حصل بالتمام ، فما ان رأتني أدخل غرفة النوم قادماً من

الشرفة ، حتى نهضت وهدجت وصاحت ، أمسكت بها ، فارتخى جسدها بين يدي !

حاولت ايقاظها من غيبوبتها ، لكنها ظلت على حالها ، جسداً ممدداً مثل جثة ، ووجها شمعياً هجرته الدماء ، وأسناناً مُطبِقة على بعضها بعناد غريب !

قرّبت رأسي من صدرها ، وضعت أذني عند مكان القلب ، فتأكدت ، لا زالت حيّة !

لعنت النساء واليوم الذي جئن به الى هذه الدنيا .

بصراحة ، لقد توصلت الى قناعة مفادها ، أن النساء لا يصلحن لغير الطبخ ، والاستغابة ، واغواء الرجال ، وقذارات ما قبل النوم ! .

* *

فشلتُ في ايقاظها من غيبوبتها ! ألا يمكن أن تكون في طريقها الى الموت ؟!

لا أدري لماذا مسّتني رغبة مبهمة في موت تلك المرأة !

وتساءلتُ عن مبعث ذلك الاحساس الخفي ، فلم أعثر على اجابة ، وحين حملتها على ذراعي متجهاً الى الشارع حيث السيارات ، تذكرتُ ذلك الصديق المتحمس لرجولته ، يوم تمنى الموت لطبيب استأصل بواسيره ! وإذ سألته عن سبب تلك الامنية ، أجاب ،

لأن الطبيب كشف أسرار عورتي !
لا أدري لماذا قفزت الى مخيلتي صورة ذلك الصديق تلك اللحظة !

وزوجتي لم تصح إلا في المستشفى ، كأنما اتخذت قراراً مسبقاً باستمرار الغيبوبة الى حين حضور الطبيب !

* *

ظلمتني زوجتي يوم قالت بأنني غير قادر على لملمة نفسي ، وبأن طموحاتي اكبر بكثير من ملكاتي ! وأغاظتني ، بعد أشهر من زواجنا ، بادعائها أنني في واد ، وهي في واد آخر !

الأنكى انها اشعرتني بوجود خلل يترجّح في رؤيتي للحياة .
كانت تتفلسف كثيراً !
سئمت ، واكتشفت أنني لا أطيق الزواج ، أبداً !

الأهم من هذا أن رغبتي في العمل مع نوفل ، ألحّت عليّ بضرورة التحرر من مشكلة الزواج ، لأن ذلك العمل ، يتطلب أن أكون دائماً

مستعداً للسفر والحركة ، هكذا قال أبي ، وهكذا رجحت خلاصي من تلك الزوجة !

فكرت في طلاقها ! وتساءلت في نفسي : لماذا يكره الناس الطلاق ، على الرغم من علاقته الحميمة بالحرية ؟ ألا يحبون الحرية ؟!

هي أيضاً أرادت الطلاق ! قالت لي بصراحة الأنثى المتعبة ، طلّقني !

يستطيع الزوج أن يميّز بين أن تكون زوجته جادة فيما تقول ، وبين أن تكون راغبة في المناورة ، من أجل احتلال مواقع جديدة في ساحة الزواج .

زوجتي كانت جادة !

صحيح أنها أحبتني ، أو هكذا قالت ، لكنها لم تفقد صوابها ، بدليل أنها بدأت ترسم الخطوط التي توضّح شخصها منذ أن تعرفت اليها !

الأصحّ أنها هي التي تعرفت اليّ ، بعد أن زارتني برفقة اثنين من أصدقائي ، ثم أخذت تتردد الى مكتبي باستمرار .

ليس مهمّاً ما قلناه ، هي وأنا في لقائنا الأول ، أو أي من لقاءاتنا اللاحقة .

ليس ضرورياً أن أتحدث عما جرى في تلك اللقاءات في مكتبي ، حيث الشيطان ثالثنا !

المهم أنني همت بذلك الجسد ، فتزوجت صاحبته !

لكنها صارت تتأفف من ضيق حياتنا ، بعد أن عرفت بديوني التي خرجت عن نطاق سيطرتي !

على ذكر الديون :

اكتشفت أنني مدين بمبالغ تفوق طاقتي على التسديد ، وأن تلك الديون تزداد بمرور الأيام ، فتتأكلني كالديدان !

قررتُ البحث عن حل لتلك المعضلة ، فكرت في تقسيط الأقساط ، أو برمجتها حسب التعبير الشائع هذه الأيام ، لكن ترتيباتي انهارت أمام اللازمات اليومية التي تتطلب ان يمتلك الرجل ثمن طعامه ، وشرابه ، وملابسه ، وسجائره ، ومواصلاته ، وتكاليف علاقاته الاجتماعية !

وأن يمتلك ايضاً ، وهذا الأهم ، ثمن طعام زوجته ، وشرابها ، وملابسها ، وسجائرها ، وأحذيتها ، ومواد زينتها ، وتكاليف تصفيف شعرها ، ومصاريف زياراتها وعلاقاتها المتعددة ، اضافة الى مصاريف نسوية أخرى لا يعلمها إلا اثنان ، الله والزوجة ذاتها !

بلغتُ حداً من الضيق دفعني الى استنكار القوانين التي لا تجيز شنق المدين !

لماذا لا يشنقون المدين ويريحونه من حياته الشقية ؟ وهل ينطوي امتناع القضاة عن اصدار أحكام شنق المدين على الرأفة بحياته ؟ أم على الرغبة في الانتقام منه ؟ أم أن الابقاء على حياة المدين تهدف الى تمكينه من العمل والشقاء من أجل تسديد ديونه ، لتتحول حياته الى وسيلة لتحقيق غاية التسديد ؟

* *

طلقتُها !

أحسست بفراغ وخواء ماحقين ، عـدت الى أمي وأبي في المزرعـة ، توقعت أن يبتهجا حينما قلت لهما ، طلقتهـا ! فهما لم يحبـانها منذ أن شاهداها أول مرة ، حين جلسَتْ على الكرسي أمامهما دون احتشام ، وأشعلت سيجارتها غير عابئة بنظراتهما المستهجنة المستنكرة !

أمي قالت بحسرة وحزن : طلقتها يا عزت ؟
ضقت بدموعها ، فاجتاحتني رغبة في التحدث الى رجل ، أي رجل !

تجولت وأبي في طرق المزرعة ، حدثته عن ديوني وديون مكتبي ، على الرغم من معرفتي بعجزه عن مساعدتي ، واذ انتهيت تنهد :

ألم أقل لك أن العمل مع نوفل أفضل لك ؟

* *

في الليـل ، ضقت بالجـدران ، حملت فرشـة ووسادة وغـطاء ، ارتقيت السلم المؤدي الى السطح ، واستلقيت في هدأة الليل ، حيث الأشجار المشرئبة الصامتة في ظلمة المزرعة ، الأفق الممتد الـذاهل ، أصـوات الحشرات ، نبـاح الكـلاب البعيـدة ، والأسرار المخبـأة في السفوح القصية المظلمة .

تأملت الكواكب والنجوم المتلألئة في السماء :

ما جدوى اللهاث الخُلَّب في شعاب الدنيا ، وأنا مسخ كائن صغير في هذا الكون الكبير ، المليء بالموت والنجوم والمجرات ؟! ثم ما دمت سأموت مثل آلاف الكائنات التي تموت كـل ثانيـة او دقيقة ، فلماذا الحزن ؟

الى الجحيم أيتها الزوجة التي قالت لي ، طلقني !

الى الجحيم ! فأنت لست سوى كائن صغير صغير ، أنت مجموعة من الخلايا ، والأنسجة ، والعظام اللينة ، والأعضاء التناسلية !

أنت مزيج من الماء والملح وعناصر التراب الأخرى ! وغداً ، في يوم ما ، ستموتين كبقية الخلق ، سيختفي من عينيك ذلك البريق الأخاذ ، ستمحّي آهاتك ، تتلاشى ضحكاتك في هذا الأثير الشاسع ، ويذوب قوامك الباسق . أما صدرك الناهد ، فسيتحلل الى عناصر تكوينه الأولى ، وربما ، بعد قرون ، تتحولين الى نفط ، في وقت لن يكون فيه للنفط قيمة !!

* *

تلك كانت أيام البؤس أيها الفقراء !

أما الآن ، فلا مبرر لنكران النعمة او للكنود ، لأن « الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

أنا الآن أهم العاملين مع نوفل ، واليكم بعض التفاصيل الأولية التي قد تهمكم :

أنا رجل في أواسط العقد الرابع من العمر ، بالتحديد ، في أواسط النصف الثاني منه .

أجلس على شرفة فندق في الريف الايطالي ، وأطل على بحيرة «ديغارا» الهادئة، فأرى شراعين ملونين يجوبانها، وأعشاباً مزهرة

وشديدة الخضرة تزيّن حفافيها ، وبضع نساء يسبحن فيها عاريات الصدور .

لا أحب مواليد برج العقرب ، على الرغم من انني واحد منهم .

أفكر ، وما أنا بمفكر .

أُنفّذ التعليمات ، أُصدِرُ التعليمات ، وما أنا بجندي ولا ضابط .

لا أجد مبرراً لرياضات الملاكمة والمصارعة والتايكواندو وسواها ، وذلك بسبب اختراع « الغدّارة » ، أو ما يطلق عليه اسم « المسدس » .

ميال الى الجنس اللطيف ، دون أن يصحب هذا الميل رغبة في الارتباط بأية امرأة .

أحب المدنية على الرغم من أنها أضيق من عنق حريتي .

معجب بمبتكر « المونيتور » وبذاك الذي صمّم أنظمة الـ « أف شور » البنكية التي تمنح المرء حرية التصرف بأمواله .

موافق على ما قاله السيد نوفل من أن النفوذ غاية الحياة والوجود .

أرى ـ على خلاف السياسيين ـ بأن جهود السلام في المنطقة ، كان يجب أن تبدأ منذ لحظة امتلاك الاسرائيليين للمفاعل النووي في ديمونة .

لدي قناعة بأن مؤلفي المناهج المدرسية فقراء مثلكم ، لأنهم كانوا يفرضون علينا قراءة سير الفقراء من المفكرين والمخترعين والأدباء ، أولئك الذين يستهلون سيرهم الذاتية بالعبارة الشهيرة :

نشأت وترعرعت في بيئة حقيرة !

في صغري أُعجبتُ بأولئك العظماء الذين استطاعوا ، رغم فقرهم ، أن يشقوا صخور أزمانهم ، أن يسافدوها ويعتلوها ، لكن صفة الحقارة هذه لم ترق لي ، رغم أنها دفعتني الى مزيد من الاجتهاد في دراستي ، ففقراء اليوم ، عظماء الغد !!

لا بد من تعديل تلك العبارة الشهيرة !
لتكن مثلاً ، نشأت وترعرعت في بيئة فقيرة !
هكذا أفضل ، فالفقر ليس عيباً ، أما الحقارة !! كيف ارتضوا هذه الكلمة ؟

أبي العسوم كان مرغماً على التقتير ، اذ لو فتح راحة يده لما وجد قوت يومنا !

للإنصاف ، فإن الفضل في اجتهادي في دروسي ، انما يعود الى سير الناجحين المدرجة في المناهج المدرسية ، أما أبي ، فلم يشغل نفسه في متابعة دروسي ودفاتري ، انه يعود من عمله متعباً مفكك العظام جائعاً !

كل ما هنالك ، أنه يسألني في نهاية كل عام عن ترتيبي بين زملائي في الصف وفي المدرسة !

يهمه فقط أن أكون الأول في الصف ، أو الثاني ، على أن ترتيب « الثاني » يسبب له امتعاضاً واضحاً ، أما العلامات فلا يفهم بها ولا يسألني عنها .

ذلك الرجل ، الطويل الرفيع ، الأسمر البشرة ، أبي ، لن يقدر على تدريسي بعد أن أكمل الثانوية . . عرفت هذا ، فتكاليف الجامعات اكبر من أن يتحملها ، ثم من يدري ، فلعله ينتظر انتهائي من الثانوية

كي يطالبني بالعمل ، من اجل اسناده في شوطه مع الحياة . . كل شيء جائز عند أبي الذي رقص أمامي ، رغم جديته وصرامته ، ثلاث مرات !

الأولى حينما ورد اسمي على لسان المذيع ، اثناء تعداده البطيء لأسماء العشرة الأوائل في الثانوية العامة !

يومها دبّ الحماس فيه ، فشد أمي من أصابعها ، فالتوى بنصرها ، فصاحت ألماً ، لكنه لم يكترث ! شبك اصابعه بأصابعها ، ورقصا معاً !

لا أدري لماذا سالت الدموع من عينيهما اثناء الرقص ؟ هل كانا حزينين ؟

المرة الثانية ، حينما أبلغنا مدير التربية والتعليم ، اثناء حفل اقامه تكريماً للأوائل في المملكة ، بأننا حصلنا على بعثات دراسية على نفقة الدولة !

أما الثالثة ، فحينما تخرجتُ من الجامعة حاملاً ليسانس الحقوق . . لكنه هذه المرة بدا متعباً مكابداً ، وكانت رقصته على بدائيتها تحمل رسالة محزنة لي ، واحتمالاً مطلقاً لم أرغب في مناقشته مع نفسي !

اكتفيت بمراقبة حركات يديه ورجليه ، وتعابير وجهه الأسمر ، غير أن الحياة لم تمهل أبي كي يشاركني فرحة خروجي النهائي من أوحال الفقر !

سأتخيل كيف ستكون فرحة أبي لو كان حياً :

سيشد امي من يدها أو تشده من حزام بنطاله الفضفاض ، كي يقوم ويشاركها النّط ! سيمسك ببنطاله ويقف على قدميه ، ثم يبدأ : ولم لا ؟ ألم يصبح ابنه عزت ، الذي هو أنا ، نائباً للسيد نوفل ؟

أما وقد توفي والدي ، فلا داعي للاغراق في تخيل ما يمكن أن يفعله فيما لو كان حياً ، لأن خيالي في هذه الحالة سيمارس نفوذه حتى على الموتى ، سيبعث الحياة في روح أبي وجسده ، سيوقفه على قدميه في الساحة الترابية عند مدخل المزرعة ، بقميصه الأبيض وبنطاله الكاكي ، وسيسفُّ خيالي ، فيحرك يد أبي اليمنى ، يرفعها الى أعلى ، ويطوي ذراعه ويده اليسرى ليضعها وراء ظهره ، أسفل ظهره ، ولسوف يثني ركبة أبي اليمنى مبقياً على اليسرى كما هي .

هنا تتجاوز مخيلتي حدود الحياء ، لأنها تبتعث في جسد أبي الحركة ، لتريني أن أبي حي يرقص ، رغم موته ! لكنه لا يفعل ذلك بسبب حصولي على ليسانس الحقوق ، انما لأنه يرى مكتبي وبيتي الجديد الذي تملّكته ! أما ارصدتي في البنك ، فلن يستطيع الاطلاع على أي منها ، لأن البنوك أسرار !

* * *

الضبـــع الصغيـــره

عرّفته الى نفسها المتلكئة في فراغات البداية الموحشة ، فافتتح صباحه الذي صفا حينئذ ، رغم ضجيج محركات السيارات ، واصوات الباعة ، وصفارات سيارة اسعاف مسرعة ، اخترقت شوارع المدينة المكتظة بالناس والعربات والسيارات والدراجات .

تعرف الى صوتها المسائي الهادىء رغم الصباح ، فدهمته السعادة : أيمكن أن تكون السعادة مفاجئة ؟ هكذا ؟

هي محض مصالحة مع الحياة ، ألا يحدث هذا مرة في العمر ؟
ولماذا لا أتصالح وهذه الحياة ؟ ما الذي يمنع ؟

لكن هدنته تلك ، امتدت نحو الأسابيع الأولى لعمل هيفاء التي بدت له ذكية ، لمّاحة على الرغم من أن هدوءها ذاك ، أحسّ ، ليس اصيلاً في نفسها :

انه كهدوء البحر الذي لا يدوم !

جسد هيفاء مثقل بالشهوة ، لكن تفاصيل وجهها لا تتفق وهذا الوصف ، فما الذي يحدث حين يتلملم السحر في الجسد ، ويغيب عن الوجه ؟

صحيح أنها تمتلك نظرة موحية ، لكن منخريها مرئيان : من ينظر الى وجهها ، لا بد من أن يتنبّه الى أنفها وعينيها وجبهتها !

لهيفاء عينان أصيلتا السواد ! سوادهما دائم حتى في وضح النهار ، ليس كتلك العيون السمراء التي لا يظهر سوادها إلّا في الليل ، تحت الأضواء العادية !

لكن سحر تينك العينين يظل مشوشاً أيضاً ، بسبب جبهتها المستديرة العميقة التي توحي بالثقة الزائدة ، بالغرور !

مشكلة هيفاء في أنفها وجبهتها المستعلية ، ربما كان هذا سبباً في عنايتها المفرطة بحاجبيها المستدقين ، وخديهاالمحمرين ، وملابسها القصيرة ، وفخذيها اللذين ينسيان المرء ، أن من غير اللائق اختلاس النظر اليهما بين لحظة ولحظة !

لكن عزت ، على الرغم من ذلك ، لم ينس أن في نظراتها الفاحصة المتسائلة الى رقبته ، استفسار ما حول ندبته التي تشبه ورقة التين ! تذكر أن عليه صرف انتباهها عن تلك الندبة ، بابتسامته الصباحية ، وحديثه المسهب عن العمل في المؤسسة ، وعن السيد نوفل الذي :

أوصاني بالاهتمام بك ، لقد شدّد على ذلك !

حدثها عن الموظفين والموظفات ، واقتراب نقل مكاتب المؤسسة الى مقرها الجديد :

هذا المقر تعيس مظلم كما ترين ، والموظفون يضطرون الى اغلاق النوافذ واحتمال حرارة الجو ، من أجل ابعاد الضجيج ولغط المارة والباعة ، بصراحة ، العمل في وسط البلد متعب وغير لائق !

ثم ان المتعهد انتهى من اتمام المبنى الجديد للشركة ، لم يبق سوى تركيب زجاج الممرات الذي أُجّل لحين الانتهاء من دهان الغرف والأبواب ، بعد شهر ننتقل من هنا . .

كان يتحدث اليها دون أن تفارق الابتسامة ملامح وجهه الأبيض ، تلك الابتسامة التي تحولت بمرور السنين الى تعبير لا ارادي ، يعتلي وجهه كلما التقى الآخرين ، ولقد أصاب حين قرأ في عيني هيفاء تساؤلات حول ندبة رقبته ، لكنها ايضاً وجدت في تساؤلاتها تلك ، ما تملأ به خواء المبادرة التي فارقتها ، بسبب احاديث عزت ، وبسبب عواء البداية الموحشة لفتاة تدخل مكتبها أول مرة :

والعمل معنا ليس سهلاً يا آنسة !
هكذا قال نوفل ، يوم قابلها أول مرة !

فليكن ! أليست الحياة كلها مغامرة ؟ ألم تقل أمي بأنني لست ابنة هذه الحياة حين عدت الى منزل والدي ، محملة بخزي الفتاة التي تفقد طوعاً عذريتها ، بعد جولة قصيرة من العبث الطفولي ، مع رجل توثّبت ذكورته بعد كأس واحدة ليس غير ؟

ما الخطأ ؟ ألا تحتمل الحياة حيزاً للمغامرة ؟ ألا تحمل المغامرة نسبة من الموت ؟ واخرى من الفشل ؟

أما هذا الشاب الذي قال ان اسمه عزت ، فالمشكلة معه لا تبدأ من نواياه ، المشكلة انه يثير فيّ احساساً غير مريح ، على الرغم من ابتسامته واقباله :

لو كان وجهها متناسباً وفتنة جسدها ، لكان لها شأن آخر في هذه الحياة !

ثم عاد يحادثها في عزلة الغرفة التي تضم مكتبيهما ، لكنه تنبه الى أنها تنأى بالحديث ، كلما اتجهت دفته نحو حياتها الخاصة : الاقتراب من تلك الحياة ، كالدخول في حقل أشواك :

فلأبتعد !
ثم ما الذي يهمني من حياتها السابقة ؟

في الأيام اللاحقة ، اخذت تنتهي من أعمالها بسرعة غريبة ، ثم تشعل سيجارتها مستغرقة في تأمل أشياء لا تحمل أهمية خاصة ، كالسقف ، كفراغ النافذة والجدران :

فيم تفكر هذه الآنسة ؟ كلا ليست آنسة على الرغم مما قالت ! انها ليست بمنأى عن راحتي الذكر وأصابعه ! ثمّة يد عبثت بجسدها ، أنا أعرف المرأة ، أيمكن أن يكون صدر الآنسة مندفعاً الى هذا الحد ؟ أيمكن أن ينمو النهدان ويكعبان دون أن ترعاهما أصابع الرجل ؟

كنت تزوجت ، وعرفت تلك التغيرات التي تتفتح في جسد الفتاة حين تصير امرأة ، ثمة تفجيرات يمكن التكهن بها ، اضافة الى حركة الشفتين ، الخدين المتوردين ، دقة الحاجبين ، الساقين ، الفخذين الملفوفين ، والمشية المرتاحة المستقرة الأكثر حرية !

الأهم من هذا ، النظرات التي تطل من العينين ، لعيني المرأة حكاية مختلفة عن تلك التي للآنسة ، تماماً كالاختلاف بين نظرات الرجل المتزوج ، والشاب الأعزب !

نظرة الأعزب للمرأة لا تخلو من الشهوة ، لكن تلك الشهوة عمومية ، عائمة على سطح الجسد ، تبحث عن المرأة دون الخوض في التفاصيل

التي ، غالباً ما يجهلها الأعزب ، أو على الأقل ، ذاك الذي لم يضاجع النساء !

أما المتزوج ، فوراء عينيه شهوة تفصيلية ، ان له قدرة على تخيل كثير من تفاصيل الجسد المتخفي تحت الملابس !

يتخيل المرأة في السرير ، بغلالة شفافة ، أو دونها ! يولّد أنّاتها في خياله ، يستنبط كلماتها وصيحات متعتها من نبرات صوتها حال سماعه !

ربما لهذا قيل أن صوت المرأة عورة !

صوتها عورة ، لأنه يمنح الرجل فرصة توليده في خياله !

المرأة التي عاشرت الرجل ، أيضاً ، تستطيع أن تفعل هذا ، وتفهم جيداً تلك المعاني التي تحملها نظرات الرجل ، لاسيما ذاك الذي يعرف النساء ! تستطيع تخيل مقدمات هجومه الذكوري ، طريقته في خلع ملابسه الداخلية ، مداعبات أصابعه ، هديره السريري ، غابة صدره ، قسوة أظافره ، وتنهيدة نشوته !

نظرات هيفاء تحمل الكثير على الرغم من اصرارها على أنها آنسة !

ليست آنسة ! ثم ان وراء عينيها خيال شاسع قادر ، لا شك ، على استيعاب اللغة الأخرى .

لكنها تغيرت قبل انقضاء الاسبوع الثالث على عملها في المؤسسة ! تجاهلته مثلما الجدار ، فافترَضَ :

لا بد أنني فهمت الأمر بالمقلوب !

ناكَفَتْهُ ، بل أشعرته بتخلُّفه ! وعلقت بضيق على طريقته في اختيار ألوان ملابسه وربطة عنقه ! وعلى الرغم من مكابراته التي حاول عبرها حماية ذوقه ، إلا أنه في تلك الأيام وافق في سره على وجود ذلك التخلف ، وتنبه الى تناسق ألوان ملابسه ، والى قيافته ، لكن نفورها منه ازداد !

فكر فيما يمكن أن يكون ارتكب بحقها ، فلم يعثر في ذاكرته على شيء : كان نفورها أشبه بنفور فيزيائي يصعب فهمه وتحديده !

سألها عن اسباب ضيقها ، فهزت رأسها ، نفت ، بل أكدت له عكس ما ذهب اليه :

أنا على ما يرام !
ازداد ضيقاً وغيظاً :
لماذا هي هكذا ؟

لماذا تستعد كل صباح لمجابهة جديدة ، كأنما تقضي ليلاتها مفكرة في معركتها تلك ؟

في الصباح تمر من أمامه دون أن تؤدي التحية ، دون أن تنبس ! تجلس وراء مكتبها ، تفتح المجر بعصبية ، تخرج منه الدفاتر والأوراق ، تخبطها على سطح مكتبها محدثة صوتاً يثير السخط والحنق !

حتى حين ألقى على مسمعيها التحية مقترباً منها ، محاولاً مصالحتها ذات صباح متعرق ، فقد ردت ببرود متقزز ، دون أن ترفع رأسها عن مكتبها ، دون أن يتوقف قلمها عن التشاغل بالكتابة !

تأملها بعينين باحثتين عن أسبابها ، لكن عينيه لم تظفرا بمعنى واحد ، او

ملمح يشير الى ما يجول في أعماقها ، ذلك انهما اصطدمتا بقناع وجهها الصلد ، الذي يحظر على ملامحها امكانات الظهور او التغير !

أما تلك الاشراقة التي غمرت محياها يوم التقيا أول مرة في المكتب ، فبدت له مثل ذكرى كاذبة اختلقها خياله ، في واحدة من شطحاته غير البريئة :

في الرغبة تواطؤ مع الحياة !

قال دون أن تتحرك شفتاه ، ثم قرب وجهه منها ، فتسللت الى أنفه رائحة عطرها النفاذ ، لكنها لم ترفع رأسها عن الورقة أمامها ، كأنما لا يعنيها اقترابه منها :

ألا ترين أن اسلوب تعاملك . .
أنا هكذا !

قاطعته دون أن تتوقف عن الكتابة ! صمت ، أنزل عينيه ، فسقطت نظراته على أصابع يدها اليمنى ، رأى أظافرها الطويلة التي : كمخالب قط متحفز ! دهمه قلق مبهم ، نقل عينيه نحو يدها اليسرى ، فجفلت أعماقه حين شاهد في بنصرها خاتماً ذهبياً ، يحمل هيكل عنكبوت ذهبي معقوف الأطراف ، كأنما يتأهب للفتك بضحية ما !

يا الله !

لكن ما رآه على الورقة أمامها أثار الفزع في نفسه ، فقد تنبه لأول مرة منذ أن تعرف اليها ، أن توقيعها أسفل الورقة ، ليس سوى خط يبدأ بدائرة صغيرة ، ثم يلتوي يميناً ويساراً عدة مرات ، تماماً مثل رسم الأفعى !

وكان سألها ذات يوم عن نوع عطرها ، فأجابت بينما التمعت عيناها : كوبرا !

* *

الأمر الآن مختلف ، عزت صار نائباً لنوفل ! وله عند هيفاء ، التي ترفض في دخيلتها وجوده ، ثأر عتيق ! احساس بالمهانة يتطلب الرد ! هي الآن معضلته ، هي النتوء الوحيد المتبقي في المؤسسة : هل يطلق نوفل يده اذا ما امتدت لتطالها ؟

لقد تبين له ، بعد صراعاته الضارية مع مسؤولي المؤسسة ، أن هيفاء لم تنتظر جولته معها ، فقد تقربت من نوفل حد الالتصاق : صار يسمع صوتها وهي تضحك داخل مكتبه ، وتوصل الى أن ضحكاتها تلك ، من النوع الذي لا يبدر عن المرأة إلا حين يتعرض جسدها الى دغدغة من يد رجل ! واذ تخرج من باب مكتبه تحرص ، هكذا بدا له الأمر ، على ابقاء آثار ضحكاتها على تقاطيع وجهها :

هذا ما لم نألفه من قبل !

قال متشككاً مرتاباً ، كأنما تراكضت الفئران في عبّه فجأة ! اذ طالما ابتعد عن مجابهة الأسئلة الكثيفة التي نمت وتشابكت في ذهنه منذ أعوام :

لماذا أنا بالذات ؟

ماذا لو انهار عالم نوفل الزاخر بالخفايا ؟ ثم ان ما يحدث في البلاد ، ينبىء بما هو أبعد مما يجول في الخيال الباحث عن النفوذ !

ثمة تراكمات ، تلال من اسباب الريبة والشك !

صحيح أن عزت أقرب الناس اليه ، لكنه متورط حتى اذنيه ، متورط في المشـاريـع ، الـرشاوى ، التـواقيع الصـوريّة ، سجـلات تأسيس الشركات المساهمة الوهمية ، التفاويض ، البيـانات المـالية الـزائفة ، والشركات المباعة والمشتراة !

هي ضريبة الثروة السريعة :
أعرف أعرف ! لكن ، أيمكن بعد كل هذا أن يبيعني ؟ ان يتخلى عني ؟
ثم يبتسم مطمئناً الى الفكرة المهدئة التي حضرته :

وهل يستطيع فعلها ؟ ألسنا شركاء متورطين في كل هذا ؟ وهل يمكنه التضحية بعالمه كي يضحي بي أنا ؟

كان يفكر ، كان يتذكر ، وكان يقلق ، لكنه سرعان ما يوبـخ نفسه المرتابة ، يشجب ظنونه السيئة ، وأفكاره الجاحدة ، فيعود طائعاً الى ساحته دون أن يفصح لأحد ، عن أي من تلك الأفكار التي راودته :

نوفل جدير بالثقة !

لنوفل ان يفعل ما يشاء ، لكن كيف ارتضى أن تخرج عن نفوذه ؟ كيف ارتضى صدّها الرقيق له ؟ لـماذا لم تطاوعـه منذ الشهـور الأولى لعملها في المؤسسة ؟ كيف سمح لكل هذه السنين أن تمر ، دون أن يظفر بهيفاء ؟

كان يرى انها جزء من ممتلكاته : من رعيته التي لا يجدر بها أن ترفض طلباً له ! انها موظفة لديه ، متمسكة بعملها ، صحيح ، مطيعـة ، لبقة ، ذكية ، قادرة على بث الـرضا والارتيـاح في نفوس أصـدقائـه

وزائريه ؟ كل هذا صحيح ، لكن لماذا توقف نفوذه عند أقفال جسدها ؟

لقد أدى هذا الى اثارة زوبعة من التساؤلات في نفس نوفل : فهي خارج دائرة النفوذ ! هي متمردة بشكل ما !

صحيح ان نفسه المكابرة أبت أن تعلن أمامها ، صراحة ، عن رغبتها فيها ، لكنها ادركت ما دار وراء عينيه : ان في نظرته اليها شهوة تفصيلية !

هيفاء عرفت هذا منذ اليوم الأول الذي شاهدت فيه نوفل ! اما هو فتوصل ، مثل عزت ، أنها ليست مجرد آنسة تطويها البراءة : ان في جسدها مشروعاً محملاً بالأنوثة واللقاء والمتعة والرغبة ! إن جسدها يحمل وعداً خمرياً تتنادى له بقاع الذكورة وخلاياها ، تتنادى من أقاصي الجسد ، تصطف أمامه ، أو تندفع نحوه باصرار لا يحده شيء !

* *

حين اخفقت في إحكام نسيجها العنكبوتي حول نوفل من أجل ادخاله في ارادتها ، أمعنت في نكءِ غرائزه دون تضميدها ، ذلك أن حصوله عليها يعني تحققها ، تحولها الى واحدة من الأشياء السخيفة ، المتحققة ، التي لا تستحق المتابعة والاهتمام : ما ان تستيقظ ذكورته ورغباته حتى تبتعد !

في البداية اعتادت الوقوف الى جانب كرسيه كلما دخلت مكتبه ، تفتح الملفات أمامه بينما ترقب خفية ، عينيه اللتين تستعرضان شعرها ورقبتها وصدرها المندفع الهارب ، لكنها تتجاهله ! تصر على تجاهله رغم الغبطة التي تغمرها حين تدرك أن سهامها أصابت لب عظامه !

حتى حين يلمس أصابعها التي تعبث بالملفات أمامه ، مدعياً البراءة والعفوية ، فإنها تسحب يدها دونما تعليق !

لكنها بذلك ، توقف اندفاعته ، تحدها ، فيلجم رغبته ، لكنها لا تمتعض ، فأمر جسدها يظل رهن ارادتها هي لا هو !

* *

لم تأت هيفاء الى نوفل من تلقاء ذاتها ، انما بناء على توصية الصيرفي الذي هاتفه بحماس :

لن تجد مثلها أبداً ، جربها يا سيد نوفل ، انها تفهم كل اصول العمل والتعامل مع العملاء ، ثم انها تتقن الانجليزية كالانجليز تماماً ، بل انها تشرّبت طباعهم ، لقد درست في لندن أيام كان والدها حياً ، وتربت في بيئة دبلوماسية ، والدها رحمه الله كان واحداً من أهم أعضاء بعثتنا في بريطانيا ، يكفي أنها تجولت في ثلاثين بلداً ، هذه الزيارات بحد ذاتها ثقافة ، انها تغني المرء عن قراءة مئات الكتب ، لا ينقصها شيء ، جميلة ، ناعمة ، منطقية ، تفكر بالطريقة التي تعجبك : الطريقة العلمية : واحد زائد واحد يساوي اثنان !

ثم انها عملت في بريطانيا مدة ثمانية عشر شهراً ، قبل ان يموت والدها ، وتعود برفقة أمها الى الوطن :

أتدري يا سيد نوفل ؟ لقد بحثت فيما مضى عن وسيلة تمكنني من تقديم خدمة لك ، كدليل على تقديري الشديد لثقتك الغالية بي ، أما الآن فأنا سعيد بارسالها لك ، لأنك ستكتشف بعد أيام من تعيينها ، بأنني فضلتك على نفسي حينما رشحتها لأن تكون سكرتيرة لك !

كانت تجلس الى جانب الصيرفي ، وتستمع الى اطراءاته وتوصياته التي أحست معها ، بعظم المسؤولية التي يعنيها العمل مع نوفل :

اسمعي يا هيفاء ، نوفل من النوع الصعب الشائك ، اذا أردتِ الاستمرار في العمل لديه ، عليك أن تحصلي اولاً على ثقته ، ولكي تنالي هذه الثقة ، تذكري أنه مفتون بالأذكياء ، لا يحب الثرثرة او المجاملة ، يريد أن تسير الأمور حسب رغبته هو ، نفذي ما يطلبه منك دون نقاش ! حاولي ان تفهمي لغته جيداً ، كلماته قليلة ، لكنها تختصر الكثير مما يمكن قوله .

غير أنها ارتأت أن في الأمر خطأ ما ، بل احست ان ما قاله الصيرفي لا يعدو كونه فهماً مغلوطاً ، اذ كيف يمكنها تنفيذ كل شيء دون نقاش ؟ ألا يمكن أن تتضمن التعليمات بعض الخطأ الذي يحتاج الى مناقشة قبل فوات الأوان ؟

لقد انتاب الصيرفي احساس بأنه يعرف هيفاء منذ زمن ، وتحمس لها ولمساعدتها لسببين : اولهما . أنه تلقى مكالمة هاتفية من والدتها التي ذكّرته بعلاقته العتيقة مع والدها قبل موته ، ثانيهما ، أنها تمكنت من الهيمنة على الصيرفي بأنوثتها ، وعباراتها الرشيقة ، بل أحالته الى متطوع شديد الحماس لها ، على الرغم من ادعائه الحزن على والدها المتوفى ، والرغبة في إعانتها .

هيفاء بحثت عن الهوامش التي ستمكنها من تأكيد حضورها على الرغم من وصايا الصيرفي وكوابحه ، وحين دخلت مكتب نوفل لأول مرة ، من أجل اختبارها لوظيفة السكرتيرة ، عمدت الى استدراجه نحو

جسدها ، ليس من أجل منحه وعود خيرات الرغبة ، انما بحثاً عن حيز في كيانه المغلق !

وحين تمكنت من النفاذ الى أعماقه ، حاولت اقامة نسيجها العنكبوتي حوله ، لكن تجربته الطويلة في هذه الحياة ، أعانته على استعادة أشلاء هالته ، التي تنادت وتلملمت من جديد أمام هجومها الانثوي الكاسح .

* *

الأشياء الآن اختلفت ، فالخطر يحيط بوجودها في المؤسسة ، خطر حقيقي داهم يزحف باتجاهها : انه عزت الذي تفرغ لها ، بعد أن حسم معاركه مع الآخرين في المؤسسة !

فكرت فيما يمكن فعله ازاء هذه الضبع الصغيرة التي تريد ابتلاع الجميع كي تكبر :

الاقتراب من نوفل ضرورة ! ثم ماذا ؟

وعادت تقف الى جانبه ، حين تقديم الأوراق لتوقيعها منه ، أو حين يتصفّح الملفات :

تقف الى جانبه ، وراء المكتب تماماً ، بينما يظل هو جالساً على كرسيه ، منتظراً مبادرتها ، متفهماً بعقله المعدني ، دوافع اقترابها واستنجادها وهربها ، ثم مبادراً إلى العبث بأصابعها التي لم تعد تنسحب من تحت كفّه مثلما كانت فيما مضى ، أيام البدايات المتعبة المملة !

كانت تحس بأن اقترابها الأنثوي ذاك ، انما يمثل وقاية لها من عزت الذي يتحول الى ضبع ! ضبع كانت صغيرة ، وها هي تكبر أمام عينيها ، وأمام عيني نوفل الذي يرعاه ويتعهده ، لكن كيف ستكون نهاية الشوط ؟ الى أي حد يمكنها الاقتراب من الضبع الكبرى ؟!

وهل يضحي نوفل بعزت من أجلي ؟

إن ما بينهما اكبر من مجرد علاقة الوظيفة ، هذا مؤكد ، بينهما اشياء لا أفهمها ، اشياء يصعب تجاهلها ، فهما يجلسان معاً ساعات طويلة ، يتحادثان دون أن يسمحا لأحد بالاقتراب منهما ! لكن ، ماذا لو اقتربتُ منه بجسدي ؟ ألا يمكن ان يتحول الأمر الى ما هو أبعد ؟

هراء ! انه يشتهيني كاشتهاء الظامىء لواحة في الصحراء ، يشرب منها ، يغتسل ، يستظل بها قليلاً ، ثم يتركها ويمضي ! كلماته التي تحتمل اكثر من تفسير تدل على ذلك ، لسانه لأصابعي ويدي وساعدي ، نظراته التي تدرسني وتلتهم ما ينكشف من جسدي ، لكن كيف لي ان اميّز الأشياء ؟

الرجال هم الرجال ! ما الفرق بينه وبين ذاك الرجل ، الذي عبث بكل مكان في جسدي ، ثم قال :

أنا لم أعدك بالزواج !
هل يكون نوفل مثله ؟

وعزت ؟ ألا يمكن الاقتراب منه ؟ ألا يثور نوفل اذا أحس بوجود علاقة بيننا ؟

هذا الـ عزت مختلف ، انه الايام القادمة ، هذا واضح ، كان الايقاع به ممكناً فيما مضى ، أما الآن ، فهو يقظ مثل نمر متحفز ، انه مستعد أبداً :

يا سيد عزت ، لم نعد نتحدث مثلما كنا ، هل زادت مشاغلك ؟
فسلمها ورقة مكتوبة بخط يده :
اطبعيها ، سأعود بعد قليل لآخذها !

ضاقت من حولها الدائرة ، استنجدت بالصيرفي على الرغم من معرفتها بضعفه أمام نوفل ! أسرّت له بضيقها ، فوعدها بالفرج ، لكن جواب نوفل كان مراوغاً ورادعاً :

انها أفضل سكرتيرة ، أنا فخور بها ، فهي الكل في الكل ، لا توصيني عليها ، ما عليك إلا أن تنتبه الى اسعار العملات !

* *

غير أن هيفاء لم تعد سوى واحدة من جمع موظفاته الجميلات والدميات وذوات الدم البارد ! لم تعد تلك التي تشهّاها ، بل إنه صار يرى فيها وجهاً شاحباً مصفراً ، عرفه حين زارها في المستشفى برفقة عزت !

يومها شاهداها كما في بيتها ، بلا مساحيق ، بلا أيّ من تلك المواد التي تستخدمها الإناث من اجل تحسين رقاع وجوههن !

شاهداها مستلقية على السرير الخشبي الأبيض ، بعد أن استأصل الأطباء زائدتها الدودية التي التهبت اثناء وجودها في المؤسسة .

ولقد صاحب ذلك الالتهاب غثيان وحرارة عالية ، وعرق أصفر وغيبوبات قصيرة ، ثم رغبات متتالية في القيء المتواصل ، لذا أوعز نوفل الى سائقه بأن يصطحبها ، برفقة واحدة من زميلاتها الى المستشفى ، علهم يعرفون أسبابها ، فأسرع السائق،فتح باب السيارة الأمريكية ، ثم عاد اليها :

تفضلي !

وحين أخفقت في الوقوف ، أمسك بذراعها ، ودس رأسه ورقبته تحت أبطها ، في حين امتدت يده اليمنى كي تمسك بخصرها ، ثم سار بها نحو السيارة ، فتبعته احدى الموظفات ، جلست الى جوارها في المقعد الخلفي ، قبل ان تنطلق السيارة بسرعة الريح نحو المستشفى .

* *

وعلى الرغم من اشراقة الأزهار الارجوانية والبيضاء ، في السلة المذهبة التي اودعها السائق على المنضدة أمامها ، كتعبير عن تمنيات كل من نوفل وعزت لها بالشفاء ، إلا أنها امتعضت في دخيلتها حين شاهدتهما يدخلان غرفتها !

أحسّت انهما لم يقتحما عزلتها وحسب ، انما انتهكا اسرارها ، اطلعا على حقيقتها حين شاهدا وجهها الأسمر الشاحب ، والبثور الصغيرة المرئية اسفل فكّها الأيسر ، وعينيها اللتين كانتا على غير ما عرفاهما :

صغيرتين ! ذلك أن الكحل الذي منحهما سعة وجمالاً ، كان اختفى ، في حين اشتبكت خصلات شعرها ببعضها على الوسادة البيضاء ! لقد رق نوفل لحالها ، وأوصى الممرضات بضرورة الاعتناء بها وتسليتها ، غير ان اشفاقه ذاك ، تضمّن احساساً بانخداع شهواته التي انصبت من قبل ، على هذه الفتاة ! أما عزت ، فأحس بتأنيب ضميره حين شاهدها في تلك الهيئة المحزنة ، واستغرب أن تكون الفتاة التي ترقد على السرير أمامه ، هي هيفاء التي عرفها ، وتفتق خياله عن أسئلة حول المساحيق التي تغير لون البشرة ، واقلام الحواجب ، والشفاه ، والكحل والفراشي الصغيرة الدقيقة التي كانت زوجته تستخدمها بإفراط .

أكثر من هذا انه تنبه الى كتلة جسد هيفاء المنكمشة تحت الغطاء الأبيض ، تلك الكتلة التي بدت له صغيرة ، الى الحد الذي دعاه الى التساؤل عن طولها الحقيقي !

* *

حين ودعاها وخرجا ، التفتا الى بعضهما ، فتلاقت عيونهما في هدوء تلك الظهيرة المتكاسلة ، كأنما اراد كل منهما ان يتحقق من صحة احساسه ازاءها ، ثم استقلا السيارة دون أن يتبادلا الحديث ، بل ان رغبة في الاعتزال والتفكر اجتاحتهما ، لاسيما نوفل الذي بلغ حد الاقتراب من اقتحام جسدها ذات يوم : كانت هيفاء مشروعاً محملاً بالرغبة ، لكنها الآن ليست سوى جسد يثير الشفقة !

أحس نوفل اثر زيارته تلك ، بنفاد كتلة مـا من أعماقـه ، كتلة خلفت فراغاً أشبـه بذاك الـذي يحسه المرء ، حين تخلو أمعاؤه من الطعام !

لكن مشاغله وهمومه التي تراكمت بشكل لم يعهده من قبـل ، أنسته ذلك الاحساس في صبيحة اليوم التـالي ، ذلك انـه غرق في متـابعة وترقّب التغيرات والاحتمالات التي تمور بها البلاد :

كل شيء يعنيه ! وكل حدث يحتاج وقفة منه !

* * *

الناس في البلاد !

! كلمة أخيرة [illegible]

ثمة أناس لا علاقة لهم بالمنازل المغيبة في أودية المدينة ، أو سفوح جبالها ، او طرقها الموحلة .

لكنهم يمتلكون أسماء تتمركز في بؤر الرهبة التي تلهج الألسن وتزيغ الابصار !

لحضورهم وقع رنين كنائسي لا يمكن التنبؤ فيما اذا كان فرِحاً أم حزيناً ، ولاقترابهم حمأة اللهيب في الظهيرات القائظة !

وحده نوفل يسخر في دخيلته حين يرى صورهم في الصحف وعلى شاشات التلفاز : يبتسمون ، يمنحون ملامحهم الجلدية علامات الخطورة ، ويطلقون التصريحات الوقورة التي لا تحدد مصائر الناس ، بقدر ما تشرح اضطراب سرائرهم !

يسخر كلما شاهدهم يحشدون وهْلاتهم بفجاجة الديوك المهزومة حيث يلتقونه ، ويختبئون وراء قمصانهم البيضاء المنشاة ، وربطات العنق الحريرية الحمراء والخمرية ، والبدلات الانيقة التي يحيرون الباعة قبل أن يقع اختيارهم عليها : فالبدلة مشروع ، والحذاء مشروع آخر يضجر الباعة ، يحيرهم فيركعون أمام اقدامهم ، ويشرحون :

يشرحون لهم عن منشأ الحذاء ، والنعل ، ونـوع الجلد المستخدم في صناعته ، وربما سلالته ! فيحفظون عن ظهر قلب ، تلك المعلومات باعتبارها جزءاً من المعارف المدينية التي يمكن تداولها في الجلسات ، أو حين يثير الحذاء اعجاب أي من الاصدقاء او زوجاتهم . . لا بد من معرفة تاريخ الحذاء . .

حين يجلسون في حضرة نوفل ، يفتعلون الانفة والأهمية ، يـرسمون حول انفسهم سياجات آنية ، على الرغم من أثمانهم التي يدفعها بيده ، وبأصابعه الغليظة قبل ان تمتد خيوط نفوذه اليهم : قبـل أن يحيلهم جنوداً مخلصين ، في كتائبه المنتشرة في أنحاء المدينة !

يدفع نقداً ، على الطاولة ، فالشيكات لا تؤدي أغـراضها ولا تحقّق الحذر .

* *

لكنه يستخف بهم ! فهو يدرك منذ ابتداء تعرفه الى الحياة ، أن سياجات المرء تكمن داخل نفسه لا خارجها :

يا أولاد الشياطين ! تتقنون كل هذا التمثيل !

يقول اذ يشاهد وجوههم على شاشات التلفاز ، ثم يهز رأسه بحكمة العـارف ، وحنكة المستبـطن الملم بالخفـايا الكـامنة وراء كـل كلمة ينطقونها :

ليقولوا ما يشاؤون !

يخاطب نفسه ، في حين يزدحم الناس في المنازل والشوارع قلقاً وهلعاً على مصير كدّهم وجهدهم وأموالهم ! يزدحمون دون أن يدركوا أيا من أسرار الرياح التي تعصف بالوطن ، ودون أن يتمكنوا من الاطلاع على أي من تلك الخفايا المخبأة في اعماق نفر من خلق الله ، ومنهم نوفل الذي أمعن في الابتعاد عن أولئك الناس : سذج ! انهم يبحثون عن مستقبلهم في سطور الجرائد ، في الكلمات التي يسمعونها من محطات الاذاعة والتلفاز ، لم يتغيروا ! أولئك الناس لم يستفيدوا من تجارب الحياة ! فليتعذبوا !

يستخف بهم ، وبالسياسة ، والسياسيين ، والمستوزرين ، والباحثين عن مراكز السلطة التقليدية :

يا لطموحاتهم الصغيرة التي يفنون أعمارهم سعياً وراءها ! ينطق في قرارته ، لكنه سرعان ما يجد نفسه مضطراً الى ضبط خطواته في زمان المدينة، فيحترمهم حين يأتون اليه ، يغدق عليهم من عطاياه ، فيودعونه وينصرفون مبررين تواطؤهم أمام بعضهم ، مقرنين تلك العطايا برواتبهم التي بالكاد تكفي لإعالة أسرهم ، ولشراء ملابسهم وأحذيتهم التي يجب أن تكون على مستوى من الجودة : لنتحدث بصراحة ، ماذا تساوي دنانير الحكومة التي نتقاضاها ازاء هذا الغلاء الفاحش ؟ ماذا تساوي أمام المتطلبات اليومية الشرهة للحياة ؟

يقولون فيما بينهم أو في نفوسهم ، ربما من أجل الاحتيال على ذلك الاحساس الشنيع الذي يدهمهم ، حين يفكرون في معنى قبولهم تلك العطايا ، وفي معنى سبات ضمائرهم التي ما ان تستيقظ حتى تزداد

عذاباتهم ، لكنهم سرعان ما ينسون ! ففي غمرة الركض واللهاث في شعاب الحياة تتراجع الاحاسيس ، ويتقدم الحذاء الذي يقود الخطى الى الامـام ، فيـدوس الشـوارع والارصفـة والقـاعـات وسقط الاحاسيس .

* *

كان يقتنص المناسبات من اجل تأكيد حضوره الممتد : يرسل لهم برقيات التهاني الفاترة مشفوعة بتمنياته الحارة ، وبرقيات المواساة الحزينة في عزاءاتهم ، ويبعث بتبريكاته في افراحهم ، وترفيعاتهم ، وشغلهم المناصب الوزارية ، وتخرّج أبنائهم ! يعلن عن وجوده المكثف عبر تلك البرقيات والاعلانات ، التي تحتل مساحات واسعة في الصحف ، ويتلقى مكالمات الشكر والامتنان التي تفتح له الخطوط ، أو تزيدها اتساعاً !

أما ما يقدمه لأولئك الرجال ، فيحرص على ابقائه سرّاً :

ما تقدمه اليد اليمنى يجب أن لا تدري به اليسرى ، تماماً كالصدقات التي تفقد معانيها حين الحديث عنها ! وكالمقدمات التطهيرية للنتائج التي توصل اليها بعد حواراته الشائكة مع نفسه ، حواراته الباحثة عن مسارب جديدة تدعم نفوذه . وتصونه من براثن الحاسدين الذين :

لا يرون في مرآة الحياة سوى وجوههم البشعة !
فاشلون !
أجل أجل ! لكنهم لا يستحقون شيئاً من وقتك الثمين سيد نوفل !

وكثيراً ما أسهم في التبرع الى الجمعيات الخيرية ، والأندية ، ومراكز الطفولة ، والأمومة ، والبازارات ، ودور الايتام ، والمساجد .

كانت لديه قائمة من اسماء الأسر المستورة ، زوده بها نفر من الوعاظ الذين توسموا الخير فيه ، بعد أن ثبت لهم عيانياً ، جاهزيته لأعمال البر والاحسان، بل كثيراً ما أورد في أحاديثه اليهم ، أثناء زياراتهم له ، آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث نبوية تحض على البر !

ولقد أدى هذا الى تطوعهم من أجل الدفاع عنه في أوساطهم المتبرمة ، مستشهدين بمشاهداتهم له غير مرة ، وهو يؤدي صلوات الجمعة في أكثر من مسجد :

ان بعض الظن إثم يا اخوتي ، لماذا تريدون دفع هذا الرجل الفاضل الى مزالق التهلكة باشاعاتكم ؟ ألا تعلمون أن من كفّر مسلماً فقد كفر ؟

ثم ، لماذا نشارك نحن في الحملة التي يقودها الكفرة من خصومه ومنافسيه في السوق ؟ ما مصلحتنا في ذلك ؟ ماذا تعرفون عن هذا الرجل الفاضل من شمائل ؟ هل رأيتموه يتعاطى المنكر ؟ كلا !

يتساءل الشيخ ويجيب نفسه ، ذلك أن الجالسين لم ينبسوا ، انما آثروا الاستماع إليه حتى النهاية :

هل رأيتموه يسرق ؟ كلا ! يحرق ؟ يقتل ؟ يأكل مال اليتيم ؟ يرتكب الكبائر ؟ كلا طبعاً ، فلماذا نقف ضده ؟ بل لماذا لا نعينه على خصومه

الذين لا يعرفون الله تعالى ، ولا يقطعون من أموالهم قرشاً واحداً لمساعدة الفقراء ؟

يا اخوتي وأود أن انقل اليكم خبراً سيسعدكم ، فقد زرت السيد نوفل بالامس ، وفاتحته بأمر المسجد الجديد الذي سنقيمه وننتقل اليه ، أتدرون كيف استقبل الامر ؟

فتعلقت العيون بالشيخ ، فاستعرض بريقها في غلالة الغسق الذي ملأ تلك الغرفة الصغيرة :

لقد تبرع بثلاثين ألف دينار لاقامة هذا المسجد !

تبسم الحاضرون ، تبادلوا نظرات الرضا ، ذلك أن تبرع نوفل السخي ، بعث في نفوسهم الأمل من جديد ، لاتمام مشروعهم الذي عملوا من أجله سنوات ، يريدون مسجداً جديداً يضم عدداً من الغرف ، لاستخدامها أماكن للُقاء ليلاً أو نهاراً :

والأهم من هذا أيها الأخوة ، أنه رفض تسجيل التبرع باسمه الصريح ! لقد أصر على ان يسجل باسم فاعل خير ! فتخيلوا هذا الاحسان ، وتبحروا في نكران الذات عند هذا الرجل الفاضل الذي شوّه الناس ، ومنهم نحن ، صورته النقية . .

* *

كانت رغبة نوفل في توسيع نفوذه ، تتقنع بآرائه التي تبدو له مشروعة ، فالحذاء يدوس الارض متقدماً نحو الامام ، لا حدود لتقدمه في هذه الحياة التي : ليست نقيض الموت.مثلما يعتقد

الآخرون ، انما هي حليفه ومبررة ، هي التي تتواطأ معه ضد أبنائها ، كي ينتصر في النهاية ، وكي يتسيد الزمان ، هو ! أجل هو الذي يحقق النفوذ حين يختطف من الحياة أبناءها ، دون أن تجرؤ على المطالبة بواحد منهم ! فليحقق ما يستطيع من النفوذ ، وليستنسخ تلك الانتصارات الكاسحة !

* *

وعلى عكس ما يرى غيره من الناس ، كان يجد في الآخرين حلفاء محتملين ، يمكنهم الاسهام في تمهيد طريقه الى النفوذ ، أو تسويتها ، تقدمة لاجتيازها : ستتواطأ الحياة معي ، أيضاً !!

لكن سعيه هذا لم يكن من أجل تحقيق وجود عادي كالآخرين ، ، أجل توكيد حضور آخر مختلف ، يستوعب المراكز المتناثرة ، وأولئك الباحثين عن السلطة ، والقابضين عليها ، كي يحيلها ويحيلهم مجرد معابر ، تماماً مثلما أحال ذلك الرجل الأنيق ذي الحذاء الخشن ، الى واحد من عيونه المركبة ، حين زرعه في احدى الوزارات فصار وزيراً ! فعلها ! ثم كررها ثانية وثالثة ، مع اثنين آخرين من رجاله الذين عبر بهم حديقة النفوذ الحكومي ، فتحول الرجال الثلاثة ، بقدرة قادر ، عيونا مفتوحة على الاجتماعات ، وأدمغة تستقبل القرارات ، وتؤثر فيها ، بل تلوي أعناق بعضها تبعاً لتعليمات نوفل ، ولآرائه الذكية التي غرسها في رؤوسهم كي يقطف ثمارها بعد حين !

وعلى الرغم من أنه أحس غير مرة ، بأن سعيه الدائب نحو النفوذ الأشمل ، ليس سوى ضرب من الأوهام ، إلا أن تلك الأوهام تحولت الى ممكنات ترسخت بمرور السنين ، عبر مراوداتها العنيدة لنفسه

الطامحة ، وعبر النجاحات المذهلة التي حققها ، على مدار الأعوام التي انقضت على وجوده المديد ، على هذه الأرض !!

* *

كان يصحو في الخامسة والنصف صباحاً ، قبل أن تستيقظ المدينة ، وقبل أن يلوث الضجيج والدخان والغبار هواء شوارعها النظيفة ، يسير نحو حمّامه الخاص ذي الخزائن الخشبية البيضاء ، والمرايا المتعاكسة ذات الأضواء السحرية ، وروائح المطهرات والكولونيا الباريسية ، يتأمل وجهه المستدير وشعره القصير الموشى بالشيب ، ثم يبصق من أعماق حلقه ، مخلفات ما ابتلعه خلال يومه السابق وليلته ، فيحس أنه يبصق مرارته ذاتها ، يفكر : يتذكر أحلام ليلته ، وأسراب العناكب المغبرة حين تخرج من مقدمة حذائه الجلدي المشقوق ، فيدوسها دون أن تطرف عيناه ، واذ يخلع ذلك الحذاء ، يرقبها وهي تعود لتتسلق جداره الجلدي باضطراب وفوضى ، ثم تختبىء داخله ! آلاف من العناكب الضالة تمارس لعبة الحياة والانسحاق والموت في حذائه :

يا لهول ما فعلت قدماي ! يا لسوء هذا الحلم الذي تكرر !

يتذكر احلامه الأخرى : الفئران التي لا تجد ما تقضمه في منزله الشاسع سوى حذائه ! ثم زوابع الجراد الجائع الذي يجتاح المدينة ، يغزو حدائقها ، يتسرب الى بيوتها ومطابخها وخزائنها ، وحذائه !

ثم ينفض رأسه مثل من يريد التخلص من حشرة حطت عليه ، ويعود يتأمل وجهه ، يفكر فيما سيفعله في يومه الجديد :

يوم آخر ، حياة أخرى !

ثم يغسل يديه ووجهه وشعر رأسه بالصابون والشامبو ، يجففها ويعود الى غرفته ، يرتدي بدلته الرياضية البيضاء ، يسير نحو حديقة منزله حيث :

أزهاره الصباحية المزدحمة التي تنتظر بزوغ الشمس بضيق ، ثم الندى الصباحي المتبرعم على الاوراق والممرات العشبية المتأهبة لاستقبال حذائه الرياضي الابيض ، ثم آثار الدمار الذي احاق بنبتة الغاربيا يوم استسلمت له :

كل صباح يقف أمام حشود نباتاته وأزهاره ، مثل خطيب يستمد من سكون مستمعيه دوافع البدء ، ثم يشرع باستنشاق الهواء بعمق ، باسطاً كلتا يديه بمستوى كتفيه ، كمن يود أن يطير ، ثم يخرج الزفير من فمه ، ويكرر الاستنشاق أربعين مرة ، تنفيذاً لنصيحة طبيبه الذي :

هواء الصباح يمد في عمر الانسان ، ينقي رئتيه ، ودمه ، وحتى روحه !

على المستقبل ان ينتظر نوفل ، كيما يحقق طموحاته ورغباته !

لكن بحثه المستميت عن ذلك المستقبل ، اخفى وراءه رغبة مستبدة في البقاء والحياة ، وتشبثا عجيباً كامناً في مقابض ذلك المستقبل الذي :

أكاد أن أمسك به بيدي هاتين !

يتمشى في الممرات العشبية بين أزهار حديقته ، يحس بسعادة ما ، يشاهد حشرة او عنكبوتاً فيكتم صيحة فرح تكاد تتمرد على شفتيه :

ها قد تحقق حلم العناكب !
يرى زهرة حمراء بلون الدم ، فيفرح :
هو حلم الدماء التي رعفت من أنفي !

كان يفسر أحلامه في أبسط المرئيات ، كي يتخلص من حضورها الثقيل في صدره العريض ، ومن اسئلتها التي تداهمه حال استيقاظه .

يتابع سيره في حديقته ، فتأتيه اورتنسيا ذات القوام النحاسي ، والشعر الاندلسي ، والملابس المثيرة للشهوة وللجدل الصباحي ، اذ :

لماذا تصر على ارتداء الملابس التي تستحضر شهوة الرجل ، رغبته ، وعواءه ؟

لماذا بعد كل هذا تفرُّ من أمامه ، رغم ظروف المنزل التي تهيأت منذ زمن ! فزوجته هديل تنام كثيراً خارج المنزل ، عند والديها واخوتها الذين تحمل لهم الهدايا الفاخرة ، فيحبونها ، يلحون عليها بضرورة زيارتهم ، يعدون لها المآدب الزاخرة بأصناف المأكولات التي تحبها ، لاسيما « الزغاليل » التي يشترونها من الأسواق الشعبية في قاع المدينة .

غير أن نوفل لم يكن يرافقها في زياراتها تلك :

ماذا سأفعل [illegible] أقاربك ؟ من أين لي بالوقت ؟ ثم من سيهتم بنبتتك الصماء ، المحملقة كالبوم ؟

أجل يا نوفل ، هي نبتة صادقة وقورة ، لا تعرف الغشّ كغيرها !
فرفع حاجبيه الثخينين :
لسانان لهذه المرأة البقرة !
ثم صمت . .

كان وقع نبتة الغاربيا في حديقة منزله ثقيلاً عليه ، أثقل من الرصاص البارد ، على الرغم من انه هو الذي أحضرها من اسبانيا ، حين أفصحت هديل عن افتتانها بها اثناء تجوالهما بحثاً عن عسل الشهر الأول من زواجهما !

لكن وجود تلك النبتة تحول بمرور السنين الى مبعث للضيق ، ولتعكير صفو صباحاته الندية :

انها نبتة تمارس نوعاً من النفوذ ! نفوذ مبهم صامت ، لكنه قائم ماثل حتى في اللحظات المارقة في حياته الزاخرة ، اللحظات التي يجلس خلالها وزوجته هديل في الحديقة ، حيث الأحاديث الصامتة للأزهار المسائية ، روائح الياسمين المتجولة في هدوء السور الحجري ، وسكون الشارع المحاذي .

كان يحلو لهما أن يمشيا بين صفوف النباتات المزهرة ، غير أن هديل تتوقف دائماً عند تلك النبتة : الغاربيا ! لا بد أن تقطف واحدة من ازهارها : ما ان تتوقف ، حتى يتبرم هو !

ومما زاد الأمر سوءاً ، أن هديل تضجره باعتنائها المفرط بها ، وبأحاديثها المسهبة المملة عن كيفيات تفقد التربة المحيطة بها ، خشية اقتراب حشرات الأرض الدقيقة الزاحفة منها ، أو تكاثرها على أوراقها أو عند جذورها المطاطية :

لم يبق إلا أن تنامي عندها ؟!

يتأفف ، لكن المتعة التي تعيشها هديل كلما تحدثت عن تلك النبتة ،

أقوى من أن تكف عنها ، رغم معرفتها ان نوفل لم يعد يشاطرها الاهتمام بها :

تظل الغاربيا جزءاً من الماضي الذي لم يعد قائماً في ذهن رجلها !

كان يحاول اقصاء ذلك الماضي كلما التقاه ، لكنه أبداً يطل برأسه من جديد ! مثل نبتة تأبت جذورها على الموت والجفاف ، أو مثل زوجته :

البقرة ! أنا واثق ان هديل تتحول بمرور الأيام الى بقرة !

ذلك ان صوتها ازداد خشونة ، وامتلأ جسدها ، وفاض لحمها ، إنها تأكل بنهم امرأة انتهت لتوها من شوط حراثة طويل متعب ! مع أنها لا تفعل شيئاً غير تفقُّد نبتتها تلك ، والذهاب بسيارتها الى منازل اخوتها وأمها ، وتناول الطعام الذي تحضره اورتنسيا !

حتى حركتها فقد بطؤت ولم تعد تلك المرأة الرشيقة القوام ، التي تزوجها أيام الشباب : لكنني انا المخطىء ! كان عليّ ان اتنبه منذ ذلك الحين الى أن جسدها مرشح للسمنة ، كوالدتها وسائر اخواتها ، تبّا لهذا الحظ !

لقد تحولت شهيتها الى مبعث احراج له في مناسباته الاجتماعية ، فهي تبدأ الأكل غير عابئة بنظرات الضيوف او المضيفين ، على عكس غيرها من النسوة اللائي يتقنّعن الاكتفاء ، فيرغمن انفسهن على قبول القليل من الطعام ، حفاظاً على رشاقتهن :

والعمل ؟

وحين يعودان من زياراتهما ومناسباتهما ، يوبخها بسبب طريقتها الفظة في تناول الطعام ، يضعها في مقارنات قاسية مع الكثيرات من زوجات أصدقائه :

انظري اليهن ، ألا ترين اجسادهن المتناسقة على الرغم من أعمارهن المتقدمة ؟ هل انتبهت الى اساليبهن في تناول الطعام ؟

* *

لكن مقارناته هذه أدت الى تخلُّق نوع من الغيرة المضمرة ، والبغض الخفي في نفس هديل ازاء تلك النسوة ، بل انها أدت الى إفساد علاقاتها بالكثيرات من زوجات اصدقائه ، الأمر الذي أنبت في نفسه أسئلة لم يعثر على اجابات لها :

لماذا لا تحب غيرها من النسوة ؟ لماذا تؤدي بأنانيتها الى كهربة اجواء الجلسات ؟ لماذا يتهامسن فيما بينهن دون أن يشركنها في ذلك :

متى تعرفين الأصول ؟ متى تتعلمين محبة الناس ؟ متى تتركين أنانيتك ؟

ثم يدعها منسحباً الى مكتبه ، يشعل الضوء ، يجلس في احد المقاعد ، يفكر في امر تلك الزوجة ، تتصارع الحلول ، تمتد الخيوط فتطال السنين ، تستحضرها :

هديل التي كانت ! هديل النحيلة الخجولة ، ذات الوجنتين المحمرتين ابداً !!

لكن تلك الصورة سرعان ما تذوي ، تغوص في اسرار ذاكرته التي تعود الى إمطار عقله وروحه ، بذكريات البدايات الهَدِجة لحياته الحاضرة المتنفذة ، وحياته المحاصرة بالرقابات الخفية التي يمارسها عليه

اصدقاؤه ، وموظفوه ، وخصومه ، ومنافسوه ، وأطباؤه ، وحلفاء صفقاته ، وكل العيون المفتوحة في المدينة ، وزوجته !

حتى هديل التي تصر على الاهتمام غير العادي بنبتة الغاربيا ، على الرغم من معرفتها بما تسببه تلك النبتة له من ضيق آخذ في التراكم :

لا بد من حل !

وإذ تلملمت خيوط مؤامرته على تلك النبتة الصامتة ، فكر في طريقة للفتك بها ، دون أن يبدو ذلك الفعل متعمداً !

وفي أحد المساءات ، وبينما زوجته خارج المنزل ، سكب كمية من السماد الكيماوي المركز على جذور تلك النبتة :

عمل خسيس ؟! ليكن !

ثم كرر في صبيحة اليوم التالي ما اقترفته يداه في البارحة ، ولم يمض سوى بضعة أيام على فعلته تلك ، حتى ذبلت أوراقها واصفرت ، كأنما فاجأها الخريف ، ثم تساقطت على الرغم من المحاولات التي بذلها المهندس الزراعي المشرف على الحديقة ، من أجل احياء تلك النبتة التي استكانت واستسلمت الى نهايتها ، دون أن يتمكن من معرفة أسبابها ! بل انه بذل محاولة أخيرة يائسة ، حين قام بتهوية جذورها ، غير أن محاولته أدت الى الاسراع في النهاية المفجعة لتلك النبتة . .

* *

تبين لنوفل ، عقب موت الغاربيا ، أن ما ارتسم في روحه حول علاقته المتوترة بزوجته ، قد أعلن عن نفسه بتلك الفعلة التي كشفت حقائق علاقته بتلك الزوجة !

لقد بلغت علاقتهما حد المقاطعة الصامتة المتبرمة ، على الرغم من وجودهما في بيت واحد :

كان يحس بِثِقَلِ الحضور الرصاصي لهديل ، فيزدرد لحظات وجوده في البيت الذي لم يعد مثلما كان فيما مضى : عشّاً جميلاً دافئاً ، تروده الأحلام المفعمة بالفرح والوفاق !

وعلى عكس هديل التي بطؤت حركتها منذ أن حلت في جسدها لعنة السمنة المفرطة ، كان نوفل دائب الانشغال والحركة :

ما معنى الحياة حين تتحول الى نوم ، وطعام ، وفساتين ، وتثاؤب مقزز ، وتجول تقاعدي في الحديقة ؟

يقول لها ، فتكمل مجترَّةً همومها :
وزيارات واستقبالات اجبارية لضيوفك القذرين !
وتجرؤين ؟!
يقول لها محملقاً في الألفاظ الجديدة على لسانها :
لكنه سرعان ما يرتد الى ذاته المستحكمة في خنادق النفوذ :
هذا ضعف ! هذا يعني أنك عجزت عن بسط نفوذك في عقر دارك !

ثم ضرب حولها حصاره الضاري ، بشراسة الرجل المطعون في أعز ما يملك :

استولى على أرصدتها في المصرف ، مستخدماً الوكالة التي منحته اياها منذ سنوات ، فتلقّت بمرارة كشفاً بريدياً يشير الى نفاد أرصدتها ، ثم استعاد السيارة التي قدمها هدية لها في عيد ميلادها الثامن والثلاثين ،

ووضعها في مرآب المؤسسة ! منعها من مغادرة البيت ، وزيارة أو استقبال اي من الضيوف او حتى الاتصال الهاتفي !!

لم تجد هديل ما ترد به على زوجها سوى العبوس والصمت العنيد المكابر ، ولقد تمكنت من الصمود في هذا الحصار ستة وأربعين يوماً ، لم تنطق خلالها بكلمة واحدة مع زوجها الذي لم يلتفت إليها ، غير أنها أحست بخطورة النهايات السلحفائية لتلك الأيام القاسية :

تقرّبت من زوجها معلنة استسلامها لإرادته المعدنية ، غير أنه أعرض عنها بازدراء ! فازداد خوفها وقلقها ، تعلقت به ، ركعت عند قدميه متوسلة الصفح ، وأحست بغربتها عنه ، حين تنبهت الى ملامحه التي اتخذت هيئة مختلفة عمّا عهدت ! بل ان روعها استقبل احساساً فظيعاً ، توصلت معه الى أن في نوفل رجلاً مختلفاً مرعباً ، وأنها لم تعرف سوى سطح بشرته ، أما حقائقه الأخرى المتخفية تحت تلك البشرة ، فلم تكن معروفة لديها :

في تلك اللحظات الحامضة الحارقة ، رفعت عينيها كي ترى وجه زوجها ثانية ، فجزعت حين رأت هلالَيْ حاجبيه الغليظين ، وحدقتيه المسلّطتين نحوها بقسوة ، كأنما تأمرانها بالانصياع الى نفوذه المطلق :

هو الرجل وأنا الانثى ! لماذا أكابر ؟! هو الذي يقود السفينة ! لماذا لم اعترف بهذا من قبل ؟ ما الذي جرى لي ؟

كانت تحاور نفسها ، محاولة ادخال شيء من الطمأنينة إليها، وكان وقت استسلامها النهائي لإرادة زوجها قد أزف ، بعد شوط طويل من الزواج الخلّب ، الذي لم يسفر عن طفل واحد !!

لقد اتسع صدر نوفل وازدادت مرونة اضلاعه ، بسبب استمراره في استنشاق الهواء الصباحي لسنوات ، بل ان هذه العادة أطالت أنفاسه ، بحيث صار بإمكانه ادراج الكثير من العبارات في أحاديثه ، دون الاضطرار الى التقاط الانفاس في الاثناء ، الامر الذي اعانه على فرض حضوره ، وحال دون مقاطعة الآخرين له اثناء حديثه :

أربعون مرة يا سيد نوفل ؟ يا لقدرتك على الصبر !

قال عزت الذي دهمته الدهشة حين علم ببرنامج نومه وصحوه المبكر وتقاليد تنفسه الصباحي !

غير أن تلك الدهشة تحولت بعدها الى اعجاب باسلوب حياة نوفل ! حتى طريقته في الجلوس على كرسيه ، فقد اثارت في نفس عزت احساساً بالثقة التي تملأ ذلك الرجل ! فهو يجلس بهدوء ورصانة في كرسيه ، يلف ساقاً على ساق ، دون النظر الى ما قد تسببه جلسته تلك من استفزاز للواقفين او الجالسين في حضرته :

لقد آلمت هذه الطريقة في الجلوس ، أيام البدايات المتعبة ، ربلة ساقه اليمنى وركبته اليسرى ، غير انه واظب على تكرار هذا الوضع الذي أدى الى تليين لحم ساقيه ، ومفاصل عظامهما ، وغضاريفهما ، فازداد احساساً باستقلاله الذي لا يمكنه التفريط به .

يحتسي كوب أورتنسيا ، ثم يعتمر الواقية البيضاء ذات المقدمة المقواة المندفعة الى الامام ، فتخطىء شمس عمان جبهته العريضة الصامدة ، وعينيه المتباعدتين ، اللتين توحيان بسعة الأفق ومَلَكَات التحليق .

ينطلق برفقة وحراسة سائقه الذي ينتظره عند البوابة الحديدية العريضة ، ينطلقان سيراً على أقدامهما من أمام منزله ، يمشيان معاً الى أن يصلا مستشفى الجامعة ، ثم يستديران عائدين من حيث أتيا ، فيبلل العرق جسديهما حتى في أيام البرد ، واذ يدخل منزله ، يعبر الحمّام الذي تعده المدلكة « كيم » .

يخلع ملابسه المشبعة بروائح العرق ، ويستحم بالماء الفاتر ثم يتوجه الى الصالة المعزولة ، حيث تنتظره المدلّكة بملابسها الرياضية التي تكشف جزءاً خطيراً من صدرها المائي :

تدعوه الى الاستلقاء ، فيغمد نظراته في ذلك الصدر ، وكثيراً ما يقرص نهدها ، فتتضاحك متراجعة الى الوراء :

لكنها ليست جميلة !

* *

يستلقي على الفرشة الرياضية عارياً إلا من سرواله القصير ، فتبدأ عملها ، بينما هو كعادته ، يبدأ التفكير فيما سيحقق خلال يومه ، وعلى مدار الاعوام المتبقية من حياته !

يطيل التفكير في رجاله الاوفياء ، في عملائه ومنافسيه ومساعديه ، يستحضر صورهم في مخيلته ، ينبش التفاصيل الخفية الكامنة وراء قسمات كل منهم ، وراء عينيه ، شفتيه ، وكلماته !

يتذكر تقاريرهم المكتوبة والمحكية ، فتمور نفسه ، تضج بالشوارع

والحوادث والصياحات والتكتلات والتجمعات البشرية التي أخذت تتململ في أنحاء البلاد :

سيدي ، في البلاد أناس يعيشون حياة مختلفة ، إنهم يقضون أوقاتهم في الاستماع الى الندوات والمحاضرات !

ويجتمعون في البيوت والنقابات ودور العبادة والأندية ، يتحدثون في السياسة ، وفي شؤون العيش .

يتحدثون بتفاؤل وزهو عن أولئك الاطفال الذين يقذفون الحجارة في الضفة والقطاع !

اجل سيدي ! انهم يصنعون عالماً آخر لهم !

لا يبحثون عن المال ، إنما عن متعهم التي يحققونها في المكاسب الصغيرة التي تعني لهم الكثير فيما أرى .

ويتناقشون في كل شيء ، بل انني احسست اثناء جولاتي ، ان عالمهم ذاك مغلق علينا ، على الرغم من انه مفتوح للجميع وعلى الجميع !

انهم يستخدمون لغة خاصة ملأى بالكلمات التي تختلف عن تلك التي نتداولها !

يا سيدي ، تخيل ، انهم يتعرضون للمضايقات في أكثر الأحيان ، وتمنع ندواتهم ونشاطاتهم ، ويتم استدعاء بعضهم الى الدوائر الأمنية ، لكنهم يستمرون ! كأنما هم يزحفون !

حتى النساء ، النساء يا سيدي يسهمن في هذا الذي يجري !

ويتحدثون عنا سيدي ! يقولون بأن التجار واصحاب الشركات

والصرافين والاغنياء عموماً ، يستغلون الناس ، ويسرقونهم، بدءاً بارتفاع أسعار ملح الطعام ، وعيدان الثقاب ، والبندورة ، وسائر انواع الخضار والمحروقات ، وانتهاء برسوم الجامعات وانخفاض قيمة الدينار !

تخيل ! نحن مسؤولون عن الخراب وفوضى الاقتصاد !

كأنما لا توجد حكومة !
كأنهم لا يجدون أمام أعينهم غيرنا نحن !

انهم يقيمون ندواتهم ولقاءاتهم في كل مكان ، في نقاباتهم واتحاداتهم وهيئاتهم ومجمعاتهم وصالوناتهم .

انت تقرأ اخبارهم في الصحف سيدي ، لكنك لم تستمع الى ما يقولون في ندواتهم تلك !

يقولون يا سيدي ، أن اسباب انخفاض قيمة الدينار انما هي اسباب داخلية ، وان الصرافين وشركات الأسهم والمال والبنوك ، اضافة الى جهات حكومية مرتشية ، شاركوا جميعاً في هذا الانخفاض ، وأن خزينة الدولة على شفا الافلاس للسبب ذاته !

انهم يتحدثون في كل شيء ، يبثّون الاشاعات ، يرددون حكايات عن رشاوى للمسؤولين عن تنفيذ وصيانة الطرق والمشاريع ، ثم يخترعون بطرقهم الخاصة الغريبة الكثير من الشكوك حول عطاءات الدولة ، والرشاوى التي رافقت تسليمها الى الشركات المنفّذة .

حتى البنك المركزي ! البنك المركزي ذاته ، لم يسلم من اتهاماتهم !

لكن أتدري ؟ إنهم جبناء او أغبياء او متهورون ، فهم يحمِّلوننا وزر فقرهم وذنوبهم !

انهم لا يريدون ان يفهموا ان بلادنا خالية من النفط والمعادن وكل اسباب الحياة التي يحلمون بها ، إنهم يبحثون عمن يحمِّلونهم مسؤولية ضعف حيلتهم في هذه الحياة ، يختلقون الاشاعات ، فيصدقونها ، وينشرونها بين الناس :

ليفعلوا ما يشاؤون ، ليتنفسوا ، فنقيق الضفادع لا يوقف الحياة في الغابة !

لكنه يزعج سكانها يا سيدي !

ولماذا يكون اولئك السكان بحساسية الانزعاج ، ما داموا يعيشون في الغابة ؟

لكن لماذا يسمحون لهم بقول كل هذا علناً ؟ لماذا لا يمنعونهم ؟

وهل يملكون غير هذا ؟

لكن الى متى يا سيدي ؟

* *

وفي حين تخبطت السلطات النقدية في طوفان من الأوراق والاتهامات والتقارير ، كانت الصورة امام نوفل واضحة جلية ، ذلك أن رجاله داخل البلاد وخارجها ، لم يتركوا حدثاً إلا يستجوبونه !

يستجوبون الأحداث والتغيرات التي تضج بها قاعات المال والبورصات وبنوك «الأوف شور»! يستقرئون كرجال الارصاد الاكفاء ، ما يمكن أن يحدث خلال الساعات المقبلة ! يقتربون من ثلل الوسطاء الماليين الذين يحيكون الخدع المالية ، والمؤمرات التي تحط من اسعار العملات

والاسهم ، أو ترفعها الى عنان السماء ، ويبثّون عبر اجهزة الهاتف والتلكس والفاكس ، مستخلصات توقعاتهم ومعلوماتهم الى نوفل ، فيسير على هديها ، يسبق الكثير من الاحداث والتغيرات في البلاد ، يسبق الزمان فيها ، مثل من يعلم الغيب ، يصير مرجعاً للكثيرين من رجال المال والاعمال والصرافين ، ومراكز تداول العملات في السوق ، حتى البنوك ، فقد لجأ الكثيرون من مدرائها اليه يسألونه عما يرى ويتوقع !

ولقد يحس متعة عظيمة كلما اصطف اولئك الرجال تحت شرفة توقعاته التي : غالباً ما تصيب ! فتزيد من ايمانهم به وبقدراته ، بل انهم نسجوا حكايات كثيرة حوله ، وحول سلطاته المتعاظمة داخل البلاد وخارجها : لنعترف ! انه اكبر بكثير مما توقعنا !

* *

كان يعتقد ، كلما نظر الى خريطة مراكز النفوذ المالي في البلاد ، أن عمان كلها ، أصغر من مؤامرة واحدة ، من تلك التي تحاك في كواليس بورصات العالم ، فيستنكر العثرات التي تضعها بعض الجهات الحكومية في طريقه : لا تزرعوا الغامكم في طريقنا !

يخاطبهم عبر الهاتف كلما تلقى واحدة من رسائل التعليمات الجديدة الصادرة عن السلطات النقدية ، ودوائر مراقبة العملة ، ثم يلوح لهم بما يعرفون وبما لا يعرفون ، فيصمتون ! لأمر ما كانوا يصمتون ! ولأمر ما تمكن نوفل من أن يعرف مسبقاً ما الذي يمكن أن تتخذه الدوائر والسلطات النقدية والمالية من قرارات ! ومن الذي سيتم انتدابه لمتابعة تنفيذها ، ومتى ، وكيف !

غير ان واحداً من موظفي تلك الدوائر تنفس من أنفه فحيحاً مسموعاً ، وتَعَرَّقَتْ جبهته ، وبرزت عروق رقبته ، فقرر الخروج عن صمته :

كومبرادور يا سيدي ! رأسمال غير وطني ! مرتبطون بجهات خارج البلاد ! صاح منفعلاً أمام رئيسه الذي تصنع الدهشة ، حين علم من موظفه ذاك ، أن جماعة نوفل توصلوا الى معرفة القرارات النقدية التي ستصدر ، قبل اعلانها بعشرين ساعة :

قلت لي كومبرادور ؟ ماذا تعني هذه الكلمة ؟

قال للموظف الذي هدأ فجأة ، كمن عاد ليمسك بوعيه الذي فرَّ منه ، غير ان رئيسه عاود السؤال بنبرة لا تخلو من التهديد والوعيد :

هل انت شيوعي أيها الشاب ؟ ها ؟
ثم تركه يتخبط في تحسباته ، وتوجه الى مكتب نوفل :

مكتبي دائماً مفتوح لك ، استقل سيارتك وتعال وقتما تشاء ، ان لم تجدني ، تجد عزت ، يمكنه القيام بكل المطلوب ، اعتبرني موجوداً .

وفي الوقت الذي انشغلت الدوائر الامنية بمراقبة منظمي الندوات والخطباء والسياسيين والنقابيين ، كان نوفل يحس بأن المدينة تصغر ، لكن كفه الرهيبة تهتز في اثناء محاولتها القبض على هذه المدينة ، بأسواقها وبؤرها ورجالها ومراكزها ومؤسساتها الحقيقية والوهمية :

هذه المرة أحس أن الحياة قد تخونه ، فارتد الى اعماقه السحيقة التي لا يمكن بلوغها ، إلا حين ظهور الضبع التي ما أن تقترب من فريستها

حتى يصيبها الجزع ، فتهدج مذعورة وراءها ، الى حيث وكرها المخبوء في مكان ما ، من أعماق الفريسة ذاتها :

تصرف يا عزت ! قلت تصرف ! سنرفع أسهم الشركات الصناعية ، تصرف بسرعة !

لكن هذا لن يفيدنا يا سيد نوفل ، لأن الدولة تتجه الآن نحو رفع الحماية عن الصناعات الوطنية ، فكيف تريدنا أن نشتري تلك الأسهم ؟

سنجعل الدولة تتوقف عن قراراتها او تؤجلها شهوراً ! لحظة ، أحضر معك طلبات تسجيل شركة مساهمة جديدة !

والمؤسّسون ؟

أنا وأنت والصيرفي وثلاثة آخرون .

سنعلن عن تأسيسها قريباً ، كي يكتتب الناس فيها ويدفعون ، جهز الاعلانات للصحف المحلية ، وصحف الخليج وكافة بلدان النفط ، أريد أن يشتري المغتربون نسبة كبيرة من أسهمها ، أريد أموالهم هنا ، خذ هذه الورقة ، اقرأ التفاصيل ، تصرف بسرعة . .

* *

كان أشبه بمن يشن هجوماً وقائياً ، بعد أن تحقق من اقتراب موعد المعركة :

هيا يا عزت خذ معك عدداً من رجالنا ، اذهب الى الصيرفي ، استلم منه كل الدولارات ، وضعها في حسابي !

خذ هذا الشيك ، اصرفه من البنك ، اشتر ما تستطيع من الدولارات ، لا تبقي دولاراً واحداً في السوق ، اشتريها كلها !

كم تريد رفع سعر الدولار يا سيد نوفل ؟
عشرون فلساً ! اليوم ، ارفعوا السعر عشرين فلساً !
وينتشر الرجال في المدينة ، يوزعهم عزت ، فيشترون الدولارات ، يمتصونها من محلات الصرافة ، ومن البنوك التي سرعان ما تكف عن بيعها ، وعن اصدار التحويلات والشيكات بأي من العملات الأجنبية ، فيسخن الدولار ، يتبخر من السوق ، يرتفع الى الطبقات العليا :

بلدنا صغير يا سيد نوفل ! صغير الى حد أننا استطعنا رفع سعر الدولار خمسة وعشرين فلساً خلال يوم واحد ! هذا لم يحدث من قبل أبداً !

قال له ، لكن عينيه لم تتحولا عن شاشة جهاز المونيتور ذات الخطوط الخضراء المضيئة في ظلمة الشاشة الكابية : أين وصلت اسعار الاسهم والعملات ، لاسيما الدولار الذي يفعل السحر في نفسه ، كل شيء واضح أمام عينيه اللتين ترقبان التغيرات اللحظية على تلك الاسعار ، في بورصات نيويورك ولندن وطوكيو ، كل شيء ممكن حين تتلقى اصابعه الغليظة ، تعليمات دماغه قبل الضغط على دساتين أجهزته المتصلة بمؤسسات المال .

لكن الصيرفي يا سيد نوفل ! الصيرفي رفض التوقيع على طلبات تسجيل الشركة المساهمة ! قال ان الظروف الحالية مريبة ، قال انه خائف !

فتوقف نوفل عن العبث بدساتين أجهزته ، أدار رأسه ناحيته ، ثم قال بنبرة لا تخلو من الوعيد :

في بطن هذا الصيرفي عظام !!

كان يلتقط المعاني بسرعة غريبة ، ويقرأ ما يجول في نفس محدثه ، كأنما يسكن داخله ، حتى حين قرر ايفاد عزت في جولة غامضة الى ايطاليا ، فقد توصل الى أن ما يحدث في رأس نائبه ذاك ، يستحق الاهتمام والمتابعة !

لقد أصاب في اعتقاده هذا ، ذلك أن القلق تلكأ كثيراً في نفس عزت ، وفي روحه التي أحالته الى احتمالات لم تخطر له يوماً :

أيمكن أن يكون راغباً في التخلص مني ، وابعادي عن المؤسسة فترة من الوقت ؟

أيمكن أن يكون في هذه الجولة مؤامرة تستهدفني ؟

لكنه لم يفكر ، أن الذي خبىء له في أكمام الزمان ، أبعد مما يمكن لذاكرته الحديدية ، ولعقله المتوثب المشحوذ أن يستوعبا !

لم يفصح نوفل عن تلك المهمة التي أرادها له ، بل لم يسلمه أيا من مفاتيح لغزه الذي عبث في رأسه المكوّر ستة أشهر بلياليها المعتّقة ، وهواجسها وأحلامها الزاخرة بالعناكب والأحذية وزوابع الجراد !

ستة أشهر من التفكير والبحث ومشاهد الصور ولقطات الفيديو « والسلايدات » والمخططات والرسائل العاجلة :

هكذا هو ! يُفكر ، يتخيل ، يخطط ، يقرر ، لكنه لا يفصح عن قراره الا في اللحظات الأخيرة !

أشكرك على اختيارك لي من أجل القيام بهذه المهمة التي لا أعرفها ! قال ملتفاً على قلقه العميق ، محاولاً استجلاء التفاصيل :

لكن كيف سأغيب عن المؤسسة في هذه الظروف ؟
غير أن نوفل أجهض تخوفاته تلك :

جهّز نفسك للسفر ، هذه فرصتك ، لا تخبر أحداً بوجهة سفرك ! وتذكّر ، بعد أقل من شهر ستشكرني ، فأنت لا تعرف حقيقة ما يجري هنا !

ثم صمت ، فعمّق بصمته تعليماته الحاسمة ، التي دعت عزت الى الارتداد نحو ذاته القلقة :

كيف استطاع استنتاج مخاوفي دون أن أقولها ؟

* *

كان من الممكن أن يقوم نوفل بتلك الجولة ، من أجل اتمام الاتفاق الذي عمل على التحضير له ستة أشهر متواصلة ، لكنه قرر فجأة ايفاد عزت :

لا أحد غيرك ! لا أستطيع ائتمان أحد سواك ! فالأمر أكبر من أي موظف في المؤسسة ، انها مهمتك أنت !

ثم استدار نحو همومه التي أرغمته على إعادة النظر في الأحداث والتغيرات التي تطل برأسها عنوة ، فتكاد الشوارع تهتز إيذاناً بفوضى لا يمكن التنبؤ بحجمها ونتائجها .

والاحتمالات كلها ممكنة :

كل شيء ممكن من الآن فصاعداً ، ثم ان عزت قادر على أداء المهمة ، كل ما سيقوم به ، هو التوقيع على أوراق شراء الفندق ، والبقاء فيه .

كان كل شيء مرتباً ، الاجراءات معدة سلفاً ، بما في ذلك تذكرة السفر التي سلمها مندوب الشركة السياحية بنفسه الى عزت ، بعد أن انحنى أمامه بحركة مدروسة ، ثم جلس في مكتبه دقائق ، حدد له خلالها موعد السفر ، ساعة التواجد في المطار ، الانطلاق ، والوصول الى مطار روما المزدحم .

ستجد رجلين في صالة الانتظار ، أحدهما أشقر الشعر والآخر ذو شاربين عريضين ، أحدهما يرتدي قميصاً بنفسجياً ، تتدلى من رقبته سلسلة فضية مستديرة عليها اسم الفندق ، الآخر يحمل لافتة صغيرة مربعة ، مكتوب عليها أيضاً اسم الفندق ، يتوجهان نحوك ، تأكد منهما قبل أن تسير برفقتهما ، تذكر أنك في ايطاليا !

* *

كل شيء جاهز ، السفر ، الاقامة ، الثمن ، طريقة الدفع ، المحامي الذي سيشرف على اجراءات التسجيل ، وتسليم الفندق بكافة محتوياته ، بما في ذلك سجلاته ، عناوين زبائنه المعروفين ، اسماء موظفيه ، مستخدميه ، راقصاته ، مومساته ، العازفين ، والمنظفين ، وعناوينهم ورواتبهم ، ثم مفاتيح غرف الفندق ومكاتبه وخرائط ورخص انشائه قبل ستة عشر عاماً ، وخرائط حدائقه ، وشبكات أنابيب المياه ، والمجاري ، وقنوات التمديدات الكهربائية والهاتفية ، ثم قوائم الموجودات المنتشرة في ممرات الطوابق الست ، وفي غرفه السبعين ، ومكاتبه الأرضية ، وصالتي الاستراحة الورديتي اللون .

وتحقق من وجود هذه اللوحة !

قال مشيراً باصبعه الى بند في قائمة الموجودات ، يتضمن صورة للوحة زيتية أصلية للفنان فان كوخ ، مثبتة في صدر الجدار المقابل للمدخل الرئيسي ، ومحاط بإطار مغلق من خشب البلوط ، وواجهة من الزجاج المتين الذي يكشف عن اللوحة ، دون أن يسمح بمسها او سرقتها .

كان على عـزت أن يتحقق ايضاً من وجـود كل الآلات المـوسيقية ، وسماعاتها الاصلية ، والمرايا العريضة المثبتة على الجدار الفاصـل بين صالة الديسكو ، و البار الفينيسي ذي الجدران والاضواء الخمرية ، ثم الحاجز الدائري العريض الذي يتوسطه ، ثم الـزاوية ذات الستـائر الوردية المخصصة لعازف البيانو ، وراقصة « الستربتيز » التي لا تلهب الحاضرين برقصها وحسب ، انما ايضاً بطريقتها الفريدة المثيرة في خلع ملابسها قطعة اثر اخرى، ببطء مدروس، وغناج خاص غير مفتعل، يحس المرء معه أنها تخلع مـلابسها لـه هو ! لـه وحده من دون كـل الحاضرين :

والحـمائم يـا عـزت ! الحـمائم في السـاحـة الخلفيـة ، تـأكـد من عددها ، فأنا أحب هذه الحمائم التي تتلملم على أكتاف النزلاء وأيديهم الملأى بحبوب الذرة :

انها حمائم ذكية تفهم عصرها جيداً ، فهي لا تقـترب من الناس إلا لأنهم يضعون لها حبوب الذرة على اكفهم ، انها طيور تبحث علناً عن مصلحتها ، تقترب منك حين تجدها عندك ، وحين تنفـد الحبوب من يدك تتحول الى غيرك ! لكنها مع ذلك ، مسليـة ، تمنحك لحـظات سعيدة في مقابل طعامها .

نوفل يعرف كل زاوية في ذلك الفندق الذي زاره كثيراً ، وأمضى فيه أياماً أكثر بهجة مما يمكن لخيال عزت ان ينسج من صور وتوقعات ، بل ان نوفل حاول غير مرة أن يتخيل الجنة ، لكنه لم يتوصل الى أنها اكثر بهجة من اطلالة ذلك الفندق على البحيرة الهادئة ، بحفافيها الخضراء المزهرة ، والأشرعة الملونة التي ترودها ، وشواطئها التي تسبح النساء فيها بلا صدريات :

بلا صدريات يا عزت ! ستشاهدهن بنفسك !

لكن يا سيد نوفل ، هل تجيز القوانين الايطالية ان اقوم أنا بشراء الفندق نيابة عنك ؟

الأوراق جاهزة هناك ، تستطيع ان تتصرف ، ألست محامياً ؟
لكنني لا اعرف تفاصيل القوانين في ايطاليا .
فتبسم الوجه المستدير :

أعرف ! على اي حال ، سيأتي المحامي بعد وصولك الى غرفتك في الفندق ، انه من اصل عربي ، لكنه يقيم هناك ، ويعرف القوانين الايطالية جداً ، تعرفت اليه قبل سنوات . .

ثم تنهد قائلاً بحسم :
اسمع يا عزيزي ، لا شيء يثنينا اذا اردنا تنفيذ ما في رؤوسنا ! ما عليك الا ان تتحقق من موجودات الفندق حسب هذه القوائم ، ثم توقع نيابة عني ، وتتسلم شهادة التسجيل .

والثمن ؟ هل تم دفعه ؟

حين تصل ، تكون الحوالة وصلت البنك ، ستكون باسم مالكي

الفندق ، لكن دفعها لهم مشروط بتسجيله باسمي ، المحامي سيكون معك ، هذه الأمور من اختصاصه ، هم يتنازلون عن ملكية الفندق ، يستصدرون شهادة تسجيل جديدة باسمي ، ثم يقبضون المبلغ بعدها . .

من أين ستأتي الحوالة ؟

الأمور مرتبة بدقة ، تذكر أن العبث مع اولئك الناس لا يجدي ، انهم طليان ، كن متيقظاً !

بعد ان تتسلم شهادة التسجيل ، تبدأ مهمتك الثانية ، وهي ضبط الفندق وتنظيمه ! ستقيم هناك ، عليك ان تؤكد على وجود مالك جديد للفندق ، ادارة جديدة ، أشعر طاقمه وزبائنه بهذا ، المدراء الفرعيون سيظلون في مناصبهم ، مدراء الصالات والعلاقات والمالية والخدمات وسواهم ، ستقوم انت بدور الرقيب الصارم ، اريدك ان تكرر ما فعلته هنا ، في المؤسسة ، أريدك ان تحقق نفوذاً مختلفاً جديداً في الفندق ؟

لكن أعمال الفندق مختلفة يا سيد نوفل ! لا خبرة لي بها !

أنت مختلف عن سواك ، ثم ان هنالك مدراء مختصين لكافة تفصيلات العمل ، انت ستكون بمثابة صاحب الفندق ، هيا يا عزت . .

* * *

الرصيف الأخير

كان يتلقى رسائل رجاله من خارج البلاد ، عبر أجهزة الهاتف المسجّل، والفاكس ، والتلكس . يقرأها بعناية ، يفكّ رموزها ، لكنه لا يطلع أيّاً من خلق الله على محتوياتها الخفية : الأسرار أسرار !

ويخفي ما يلزمه من تلك الرسائل في واحد من أركان مكتبه المنزلي الشاسع ، حيث الخزنة الحديدية التي لا يستخدمها من أجل حفظ الأموال أو سبائك الذهب أو المجوهرات النفسية ، إنما من أجل حفظ أسرار وجوده المتعاظم ، أسرار استباقه زمان المدنية ، وزمان الدولة المرتبك المتعثر .

في تلك الخزنة يضع أوراق حساباته الشخصية السرية ، وثائق استثماراته ، عقاراته ، شركاته المساهمة الحقيقية والوهمية ، أسهمه داخل البلاد وخارجها ، جوازات سفره ، عناوين رجاله المنتشرين في الداخل والخارج ، ورهونات ممتلكاتهم والتزاماتهم التي تضعهم أبداً تحت رحمته ، وترغمهم على الاخلاص له في كل الأوقات ، بما فيها تلك التي يستسلمون خلالها لأحضان زوجاتهم الضجرات !

يضع كل هذه الأوراق وسواها من وثائق الثروات والممتلكات المسجلة

بإسمه ، أو بأسماء مستعارة ، داخل الخزنة المختبئة أسفل الامتداد الخشبي الغامض حيث : التشكيلات الأفقية المتصلة بمكتبته ، ذات الرفوف الزيتونية التي احتملت ، على مدار الأعوام الطويلة المنقضية ، أثقال المجلدات المذهبة ، والتحف الشرقية ، والتماثيل الايطالية والاغريقية ، وتلك التي جمعها من أسفاره المتعددة في بقاع الدنيا .

كان يحب التماثيل ، يتأملها في صمت مكتبه ومنزله كلما أسعفه الوقت ، يُنَقِّلُ عينيه مثل قط رابض ، بين تفاصيلها وانتصاباتها ومنحنياتها العضلية ، فتستيقظ فى نفسه أحاسيس القوة التى تبثها صلابة التماثيل ، لكن تلك الأحاسيس سرعان ما ترتد الى مواقعها ، حين يتنبّه الى أن تماثيله ، رغم اندفاعاتها واستداراتها العضلية ، التي تبتعث القوة والقسوة في آن معاً ، إلا أنها تظل جامدة ، عاجزة عن الحركة ، فينكفىء الى ذاته متسائلاً عن معاني القوة المجردة ، الصامتة ، التي لا تقوى على الحركة ! يتساءل عن جدوى وجودها الكامن المختزن ، في الهياكل الرخامية والمعدنية والخشبية لمخلوقات مسخها الزمان ، جمدها ، ثم سمَّرها على رفوف مكتبته التي لم تعد توحي بالحياة ، بقدر ما توحي بطأطآت مكسيكية ساكتة ، وتجهّمات بوذية تثير في النفس احاسيس الرهبة الصامتة .

حين يتعلق الأمر بتلك الأسرار ، فإنه لا يأمن للآخرين ، بمن فيهم هديل التي تزوجها ، وعاشرها ، وتعرف الى تضاريس جسدها ، وضجر بها ، وملّها ، وأذلها ، دون أن تطلع على أي من تلك الأسرار !

لا يأمن للآخرين بمن فيهم ، ايضاً ، عزت الذي أطلعه على الكثير من خفايا النفوذ ، دون أن يسلمه أياً من المفاتيح المؤدية اليه :

ليبذل جهداً ، ليبحث بنفسه كي يعثر على ما دفعت عمري من أجله !

كان ينسق أسراره بنفسه ، يحفظها بعيداً عن العيون ، فيدير محركات نفوذه ، مستمداً من تفرّده بدفّتها ، سحر التفوق ، وسر الاستشعار !

* *

كانت البلاد تئن تحت وطأة الأعباء التي تكشّفت بشكل أثار الذهول في كل الأوساط ، اضافة الى اشاعات الفساد التي ترددت في

الشوارع والمقاهي ودور العبادة والمنتديات والجلسات ، في حين ارتفعت اسعار السلع فجأة ! كالزئبق في الأنابيب ! بشكل لم يعهده الناس على امتداد حيواتهم الماضية ، في البادية ، والريف ، والمدن الخجولة .

أما الدينار ، فقد انخسفت قيمته بسرعةٍ ظاهرات الانهيار الطبيعية المفاجئة ! هكذا ! دون أن يدرك الراكضون وراء لقمة الحياة أسرار الأحداث ! دون أن يتوصلوا الى مكنونات التوضيحات والتلفيقات والهجومات الصحفية والاذاعية الخارجية التي ، ضاقت بها الحكومة ، وضاق بها نوفل :

لماذا تسمح الدولة بدخول هذه الصحف الى البلاد ؟ ما الذي جرى للحكومة ؟ ألا يدركون مخاطرها ؟

ثم يرفع سماعة الهاتف ، يحادث واحداً من متنفّذيه ، فتمنع تلك الصحف من عبور الحدود والأجواء !

غير أن أخبار تقاريرها تتسرب عبر الاذاعات ورجال الأعمال والمسافرين الذين يقرأونها خلال جولاتهم في الخارج .

* *

والذي فاجأه أكثر ، أن الصحف المحلية ايضاً ، صارت تنتقد ! وتتحدث عن المشكلات الاقتصادية والمالية اضافة الى تقارير الشؤم اليومية التي يزوده بها رجاله المنتشرون في البلاد ، عن احوال السوق ، والعملات ، وأخبار العامة ، ونوايا الدولة ، وتحركاتها . .

الناس !

الناس ضجرون في الشارع ، انهم يتحدثون علناً ويتململون ويتبرمون ويحتجّون . الأنكى يا سيدي ، إن الكبار والصغار يمارسون الآن لعبة تبديل العملات ، جنباً الى جنب ، مع الصرافين والبنوك .

والدولة تدري يا سيدي ! اذ من غير المعقول ان تكون أجهزتها غافلة عن رؤية ما يرى المارة ، لا أحد يراقب ، لا أحد يهتم .

اسمح لي يا سيدي ، الأمور تسير نحو الأسوأ ، هذا واضح ، اذ لم يعد بمقدورنا أن نتحرك بيسر مثلما كنا فيما مضى ، فعيون الناس مفتوحة عن آخرها ، كما أنّ رواد الاسواق والمضاربين وموظفي الشركات المالية والبنوك ، كلهم يعملون الآن بحذر بالغ !

بعض الناس يتساءلون عن المؤسسات والشركات التي ابتاعوا أسهمها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مآل اموالهم التي دفعوها ثمناً لتلك الأسهم .

ويسألون عن مكاتبها ايضاً ، دون أن يجدوا لها اثراً ، فيردون على بعضهم بسماجة : تبخرت !

ويؤكدون أقوالهم مدّعين أنهم ذهبوا الى مكاتبها فوجدوها مغلقة ، أو مهجورة ، هذا اذا عثروا على تلك المكاتب .

أما حين يتصلون بها هاتفياً ، فإنهم يسمعون تلك العبارة التي تتكرر بصوت امرأة محايدة ، رقم الهاتف المطلوب مفصول وشكراً ، هكذا يقولون .

ويشككون في نزاهة ونظافة مؤسسي تلك الشركات ، بصراحة يا سيدي ، انهم يدّعون بشيء من الثقة ، إن تلك الشركات والمؤسسات سجّلت وسميت من أجل اجتذاب أموال السذّج الباحثين عن الربح السريع .

ويقولون ، عذراً يا سيدي ، يقولون أنك والصيرفي وعزت ، من الذين أسهموا في هذه اللعبة ، بسبب تكرار وجود أسمائكم في مقدمة مؤسسي أهم الشركات التي ظهرت أسماؤها بسرعة ، واختفت بسرعة أيضاً ، هذا ما يقولونه . .

والمشكلة ، أن ثمة سطواً على أسرار الشخصيات وأصحاب القرار ، فالأحاديث التي تدور في جلساتهم الخاصة ، سرعان ما تنتشر بين الناس .

الأخطر ، أن مظاهر الإجرام اخذت تتفشّى بين الناس : السرقة ، التزوير ، الاختلاس ، والقتل . .

بالأمس تجمع نفر من الشبان في ساحة المسجد الحسيني ، وسط البلد ،

ثم بدأوا يهتفون بسقوط الحكومة ، وبمحاكمة المسؤولين والتجار ومؤسسات المال والسماسرة . ولولا تدخل رجال الأمن في الوقت المناسب ، لتحول الهتاف الى تظاهرة ، ومن يدري ما الذي يمكن أن يفعله المتظاهرون ، لو انهم تمكنوا من تهييج المارة وسط البلد .

المدن الأخرى في البلاد متوترة ، انها على شفا الفوضى والاضطراب ، بل انها اكثر استعداداً للانفجار من العاصمة .

لا أحد يضمن الهدوء هذه الأيام .

اننا نعرف يا سيدي ، انهم لا يستهدفون الحكومة وحسب ، انما نحن ايضاً ، وكل الناجحين والمثابرين والميسورين .

ومفهوم يا سيدي ، أن الانسان المستهدَف، هو الانسان الحي ، الحيوي ، اذ لا أحد يستهدف الأموات ، أو أولئك الذين يعيشون على رصيف الحياة . .

هذا سأجرؤ يا سيدي ، العفو ، سأجرؤ وأقول بأنك مستهدَف بالاسم ، كذلك الصيرفي ، وجملة من المقاولين والمضاربين والصرافين والمتنفذين في الحكومة ، هذا ما توصلت اليه اثناء جولاتي التي قمت بها خلال اليومين الماضيين .

حتى عزت ، الذي لو كان هنا هذه الأيام ، لما استطاع ان يفعل شيئاً ، عزت ايضاً مستهدَف ، لقد سمعت اسمه على لسان واحد من المحاضرين في احدى الندوات العاصفة .

لكن ، أتسمح لي بسؤال يا سيدي ؟ هل تعتقد أن هبوط الدينار

سيستمر بهذه السرعة ؟ أم أنه سيسترد عافيته حسب قول محافظ البنك المركزي ، ومن ورائه نوابه ومساعديه ومستشاريه ؟

* *

كان يتلقى تقارير رجاله المكتوبة والمحكية كل يوم ، بينما يعمل عقله بسرعة دواليب مجنونة ، فيرغمه على التفكير والعمل والاستنتاج السريع ، كيما يقرر هو ، ما الذي يتوجب عمله حيال التطورات المتسارعة في البلاد ، وكانت صورة خزنته تتراءى له ، مقيمة بين فقرات النتائج والأفكار ، فيفتحها ، يستلّ محتوياتها ، يجمعها خلسة في حقيبة جلدية كبيرة ، تحسباً للاحتمالات ، وتحوطاً للمفاجآت غير المتوقعة التي قد تقلب البلاد !

* *

غير ان النبأ الذي ظنت هيفاء ، سكرتيرته ، أنها فجعته به ، لم يكن سوى تحقّق متأخر لواحد من توقعاته التي ابتدأت قبل اثني عشر يوماً ، بالتحديد ، منذ اللحظة التي رفض فيها الصيرفي ، التوقيع على طلبات تسجيل واحدة من الشركات المساهمة التي اقترحها نوفل :

متمرد ! بعد كل الذي فعلته من أجله !

قال مغيظاً ، ثم شرعت حباله بالالتفاف حول عنق ذلك الصيرفي ، فطالبه بودائعه ، ومستحقات امواله التي امتصت أرصدته :

انت تدمرني بهذه الطريقة يا سيد نوفل ! لديك الكثير الكثير ، لماذا

تترك الآخرين وتطالبني أنا ؟ دعني أدفع للناس ودائعهم ، كلهم يريدون أموالهم ، انهم مذعورون ، أعطني فرصة واحدة يا سيدي !

* *

كان يعرف أن الشوارع تلهث ، والناس ، والدولة ، وأن الأيام القادمة حبلى بالمفاجآت التي قد لا تخطر ببال أحد ، لذا قرّر تجميع أمواله ، وملمة ما يمكن من ممتلكاته وديونه ، فأسهم في تدمير الصيرفي وكثيرين سواه ممن : صنعتهم بيدي هاتين !

كان يتوقع نبأ هيفاء ، على الرغم من ملامحه التي تقنّعت الدهشة ، لحظة رآها تلج مكتبه دون استئذان ، بتقاطيعها الهلعة التي تنبىء بوقوع كارثة !

تقدمت نحوه وأصابع يدها اليمنى تعبث باليسرى ، واذ توقفت على بعد ذراع واحدة من كتفه ، طفرت الكلمات من بين شفتيها :

الصيرفي انتحر يا سيدي !

فاهتز رأسه بسرعة ، كمن فوجىء بالنبأ :

خدعني بانتحاره ، كيف أخذ أموالي ومضى ؟

لكنه مات يا سيدي ! مات !

فرفع حاجبيه الثخينين ، اللذين يشيران الى العافية :

هذا الرجل لا يمكن أن يموت ! حتى لو مات ، فلأنه خبأ الأموال التي في حوزته في مكان ما ، لكي يعود اليها !

متى يا سيدي ؟!

في زمن آخر ! أنت لا تعرفين شيئاً !

واذ غادرت مكتبه حائرة متعثرة ، قال بصوته العريض الخافت :
شجاع ، لكنه غبي !

ثم استدار نحو ذكرياته ، مسترجعاً صورة الصيرفي الذي لم يكن سوى واحد من اولئك الذين يملكون صناديق زجاجية متنقلة ، يلصقون عليها صور الدنانير والدولارات للتدليل على استعدادهم لتبديل العملات ، وحين امتد بنوفل شوط النجاح ، أراد أن يغرس في المدينة أركاناً تحمي وجوده ونفوذه ، وتزيد من أرباحه الخيالية التي تتدفق في حساباته خارج البلاد وداخلها .

كان الصيرفي واحداً من اولئك الذين سيّجوا بحضورهم وجود نوفل .

صحيح أن شركة الصرافة سجلت باسمه ، لكن النسبة العظمى من الأرباح والعمولات وفروقات العملة ، كانت تحول سراً ، منذ انشاء الشركة ، الى حسابات نوفل ! فهو المموّل ! هو المالك الحقيقي للشركة عند تأسيسها ، على الرغم من أنها سجلت باسم الصيرفي ، ولكي يضمن الابقاء على تلك الملكية ، لجأ الى تقييد الصيرفي منذ البداية ، بالتعهدات والمساهمات والوكالات والشيكات والالتزامات المكتوبة الموثقة ، لقاء تسجيل الشركة باسم ذلك الرجل العريض القصير ، ذي الحاجبين المشوّشين ، والعينين المتقاربتين القلقتين ، اللتين توحيان بوجود معضلة لديه ، ملازمة لتفكيره المضطرب ، وعوزه الى البصيرة !

ولقد أحس ذلك الصيرفي بعظيم الامتنان الى نوفل ، على الرغم من مياسمه وأصفاده ووذائمه التي احاطت به من كل جانب : كان يريد أن يرتقي وحسب ! يريد أن يصير صاحب شركة ، لا مجرد صاحب كشك زجاجي على أرصفة المدينة ! أما ما دون ذلك ، فليس مهماً .

غير أن احساساً ثقيلاً بالضيق ، بدأ يراوده بعد أعوام من تأسيس الشركة ، اثر النجاحات التي حققها ! فلقد أحس أن جهوده المستميتة ، وجهود أبنائه وبناته ، والانجازات التي يحققونها ، ليست سوى خدمات امتياز ، يقدمها الى نوفل الذي استرد كل قرش دفعه ، بعد انقضاء العام الخامس من عمل الشركة ! ولولا تلك الوكالات والالتزامات المالية الدورية الطويلة الأجل ، التي ظل يرزح تحت وطأتها ، لصارت الشركة بكامل حساباتها وموجوداتها ملكاً صافياً له !

أما نوفل ، فعرف منذ البداية كيف يزرع بذور أمواله ، كيف يقطفها ، وكيف يبسط نفوذه على اولئك الذين :

صنعتهم بيدي هاتين !

* *

لقد توصل ذلك الرجل الى ضرورة الخلاص من هذه الحياة، بعد أن لاحقته صور المودعين والمطالبين والدائنين الذين تلملموا في مكتبه ، وبعد أن شاهد بعينيه المختبئتين وراء نظارتيه السميكتين ، هياكل الموت والخلاص التي طاردت روحه ، على رصيف الشارع المندفع شمالاً ، نحو السماء !

كان وحيداً الا من هواجس النهاية المفجعة ومن مشهد كلب هزيل داست نصفه الأخير سيارة مسرعة ، فانبسط ذلك النصف ، مثل قطعة معدنية داستها عجلات قطار ! ولقد حاول ذلك الكلب أن يزحف نحو الرصيف ، ربما بحثاً عن الأمان ، وهرباً من شارع تدوسه السيارات بقسوة ، وبسرعة مميتة ، غير أن حطام جسده ظل يشده الى الأرض !

الحياة على ذمة الموت

ولأمر ما تمكن من أن يعرف مسبقاً، ما الذي يمكن أن تتخذه الدوائر والسلطات النقدية من قرارات! غير أن واحدا من موظفي تلك الدوائر تنفس من أنفه فحيحاً مسموعاً، وتعرقت جبهته، وبرزت عروق رقبته، فخرج عن صمته قائلاً في حضرة رئيسه:

– كومبرادور يا سيدي! رأسمال غير وطني! مرتبطون بجهات خارج البلاد!

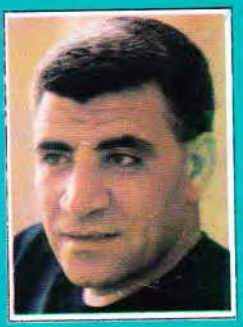

– إننا نعرف أنهم لا يستهدفون الحكومة وحسب، انما نحن أيضاً! ومفهوم يا سيدي، أن الانسان المستهدف هو الانسان الحي، اذ لا أحد يبحث عن الأموات أو أولئك الذين يعيشون على رصيف الحياة! لكن، تخيل يا سيدي، نحن مسؤولون عن الخراب وفوضى الاقتصاد! كأنما لا توجد حكومة!

– ليفعلوا ما يشاؤون، ليتنفسوا، فنقيق الضفادع لا يوقف الحياة في الغابة!

– لكنه يزعج سكانها سيدي!

– ولماذا يكون السكان بحساسية الانزعاج ما داموا يعيشون في الغابة؟

– لكن لماذا يسمحون لهم بقول كل هذا علنا؟ لماذا لا يمنعونهم؟

– وهل يملكون غير هذا؟

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
LE/DIRKAY

الغلاف: زهير أبو شايب
لوحة الغلاف: عصام طنطاوي / الأردن